د. السيد محمد الحسيني البهشتي

الحق والباطل

في المنظور القرآني

ترجمة
لجنة الهدى



دار الهادي
بيروت - لبنان

الحق والباطل في المنظور القرآني

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - ٠١/٥٥٠٤٨٧ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان

Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

الحق والباطل في المنظور القرآني

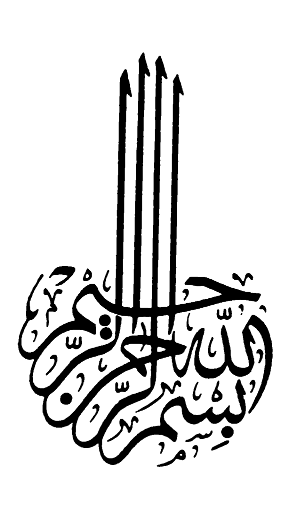
الدكتور السيد محمد الحسيني البهشتي

ترجمة

لجنة الهدى



للطباعة والنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم




شكر وتقدير

نتوجه بالشكر والتقدير للسيد عباس الأسدي على ترجمة هذا الكتاب، وللسيد موسىٰ قصير على مراجعته له، ونسأله تعالىٰ أن يوفق القارىء العزيز لحسن الاستفادة منه وأن يوفقنا لنشر الكلمة المفيدة الصالحة والحمد لله رب العالمين

لجنة الهدى



مقدّمة

واجه الفكر الإنساني علىٰ امتداد تاريخ البشرية سؤالان أساسيان: الأوّل، عن طبيعة العالم وماهيته. والثاني، في كيفية الحياة. وظلّت الأجوبة التي تتوالىٰ عليهما تترىٰ تشغله طيلة آلاف السنين من حياة الإنسان على الأرض. وقد بدأ الإنسان حركة دائبة نحو البحث عن الجواب المناسب ولن تنتهِ إلّا بعد أن تنهار جميع الحجب عن بصائر القلوب والأرواح، وذلك لأنّ الإنسان هو في حالة «صيرورة» وتشكّل هذه الحركة بدايته ونهايته. بدورهم الفلاسفة والعرفاء تصدّوا كلٌّ من منطلقه الخاص للإجابة علىٰ هذين السؤالين لتسكين قلق الروح وإشباع شدّة اللهفة والشوق. وفي خضمّ هذه الحكاية الطويلة للفكر البشري العاكف علىٰ الانتاج في منعطفات الزمان وتباينات المكان نجلس لنصغي إلىٰ ما تقوله المدارس والمذاهب والمشارب المختلفة التي يبدو وكأنّها تتنافس للردّ علىٰ أمثال هذه التساؤلات.

استمرّ هذا الجهد في العصر الحديث للحصول علىٰ الجواب المناسب، ولكن بأدوات جديدة و مختلفة، وما برح العلماء يفكرون ويبحثون ويكتبون للتخلّص من الشك والانتقال إلىٰ اليقين، وحاولوا فصم العلم عن ما وراء الطبيعة، وتقدّموا في هذا المضمار حتىٰ طمعوا في جعل الفكر الفلسفي فكراً علمياً، وتخليصه من الارتباط مع الغاية

الأرسطوئية كما فعلوا في انتشال العلوم التجريبية منها. وأثمر الجهد عن ما يُتصوّر بأنّه فصل مطلق بين «الوجود» و«الوجوب» الذي ميّز فلسفة الأخلاق المعاصرة، وانتشر تأثيره علىٰ كل فروع علم الأخلاق. وعاد السؤال من جديد في مرحلة ما بعد الحداثة، وعاد معه السجال حول ما إذا كانت حركة التنوير قد وجدت الطريق الموصل أم لا؟ ليقع الإنسان المعاصر مرّة أخرىٰ فريسة في محيط الشك العاتي والاتجاه التشكيكي وأحياناً العدمي.

وما بين أيديكم هو جهد للوصول إلىٰ تلك الرغبة القديمة وما أثارته من إشكاليات وتساؤلات، من لسان مفكّرٍ استعان ذهنه المتفحص بالفلسفة والعرفان، وغاص في أعماق الوحي بحثاً عن الدرّ الكامن في قعر محيطه.

وقد سعىٰ إلىٰ الربط بين أواصر «الوجود» و«الوجوب» عبر الرجوع إلىٰ الوحي بصورة جذّابة ما يبدو أنّها محاولة قلّ نظيرها، ليثمر هذا الارتباط عن طريق يمتدّ أمام الإنسان ليتجاوز وادي الحيرة بعيداً عن القلق والاضطراب، ويوجد في عالمه الصغير نشاطاً وتحرّكاً وهدفية في سياق انتظام العالم الكبير وهدفيته. وبعد هذا الفهم يتجلىٰ المعنىٰ الواسع لانتصار الحق على الباطل الذي جاء ذِكْره في جميع الأديان الإلهية؛ الانتصار الذي سيتحقق حتماً في مقطع زمنيّ معيّن، ويتجلّى شيئاً فشيئاً في كل خطوة تُرفع لإحقاق الحق وإبطال الباطل، ويجد في ضوئها كل مصلح نفسه عضواً في سلسلة المصلحين، متحملًا في سبيل ذلك كل مشاقّ الطريق ووعورته ليقينه بصحة سبيله.

هذا الكتاب يضمّ أربع محاضرات لآية الله الشهيد الدكتور بهشتي (أعلى الله مقامه) ثلاثة منها ألقاها في الجمعية الإسلامية الطبية، والرابعة انتقيناها من سلسلة بحوثه حول تفسير القرآن. وتتصف

محاضرات هذا العالم العامل بالإسلوب الحواري ما يدعو إلىٰ التأمّل والتعمّق، وخلالها لا يشعر الحاضرون أنّهم مجرد مستمعون، بل يلمسون مشاركة فعّالة، ولهم دور في بلورة الأفكار.

يبدأ الشهيد بهشتي بحوثه بمناقشة المفاهيم الشائعة المتداولة، ثمّ يتقدّم في البحث خطوة فخطوة ليصل إلى قراءة تقود إلىٰ تفسير تلك المفاهيم بالشكل المطلوب.

ولمّا كان بعض القرّاء لا يتذكرون تلك الأيام التي ألقيت فيها المحاضرات، لذلك نشير باختصار إليها، فذكرها لا يخلو من نفع وفائدة.

تمتدّ الفترة الفاصلة بين تأسيس الجمعية الإسلامية الطبية ومجالس البحث والحوار المثبتة في هذا الكتاب إلى أكثر من تسعة عشر عاماً، تبلورت خلالها الاجتماعات العلمية والتنظيمية للتعاون بين المؤمنين في الوسط الطبي، ومع النقابات الإسلامية المهنية الأخرىٰ، إذ كانت تعقد بعض الاجتماعات مشتركة مع أعضاء الجمعية الإسلامية للمهندسين التي تأسست هي الأخرىٰ قبل وقت طويل. ومن المحاضرين في هذه المجالس يمكن أن نذكر: المرحوم آية الله الطالقاني، والمرحوم المهندس مهدي بازركان، والمرحوم الأستاذ الشهيد آية الله مرتضى المطهّري، والمرحوم الشهيد آية الله البهشتي. والملفت في هذه المجالس هو أجواء الودّ والصميمية التي كانت تسود فيها، فضلًا عن أن السامع كان يشعر بالحرية في المداخلة والنقاش ما كان يثري البحوث التي تطرح فيها. ومن الأسماء البارزة في حاضري هذه المجالس ومبدي الرأي والسؤال فيها: الشهيد الدكتور فياض بخش والشهيد الدكتور لواساني.

وقد اخترنا بحث «التسليم للحق» من بين البحوث الخاصة بتفسير

القرآن التي ألقاها الشهيد آية الله الدكتور بهشتي بين الأعوام ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ في أمسيات الأحد من كلّ أسبوع في أعضاء «الهيئة القرآنية» التي كانت تعقد مجالسها في منازلهم بشكل دوري. ومن بين الأسماء التي كانت تدير هذه المجالس وتشارك فيها نذكر: الشهيد صادق والشهيد علي درخشان.

وقد امتدت يد التقدير في فاجعة ٢٧ حزيران ١٩٨١م لتطلب كل هؤلاء الشهداء العظام، وليكونوا شهداء علىٰ مظلومية الحق وزوال دولة الباطل.

ثمّة ملاحظات ينبغي ذكرها بخصوص هذا الكتاب:

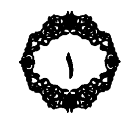
١ ـ في التنقيح، أجرينا أقل ما يمكن من التغييرات اللازمة، والتزمنا بالحد الأكبر من الأمانة في نقل النصوص من أشرطة التسجيل.

٢ ـ حاولنا قدر الإمكان ذكر أسماء السائلين إلاّ في الحالات التي تعذّر علينا معرفتهم.

٣ ـ البحث الأخير «التسليم للحق» لم يكن ضمن هذه المجموعة، وقد أدرجناه معها لوثاقة ارتباطه ببحث «الحق والباطل في المنظور القرآني».

كل ما نرجوه أن ينال هذا الكتاب رضا القرّاء الكرام، وأن يشكّل خطوة ولو صغيرة في التعريف بأفكار هذا الشهيد الخالد.

مؤسسة نشر آثار الشهيد آية الله
بهشتي وأفكاره



الحق والباطل

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام علىٰ جميع أنبيائه ورسله وعلىٰ سيّدنا خاتم النبيين ﷺ وعلىٰ الأئمة الهداة من أهل بيته والخيرة من آله وصحبه والسلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين.

مفهوم الحق والباطل:

ما نريد أن نتطرّق إليه في مجلسين أو ثلاثة مع الأخوة والأخوات الأعزّاء ونتبادل الرأي حوله هو موضوع «الحق والباطل» في القرآن الكريم.

لنقف أوّلًا علىٰ تصوّرنا لمفهوم «الحق» ووعينا له من خلال ما اكتسبناه من معرفة عن هذا المصطلح، ولكي لا أبدأ البحث بتصور تحليلي دقيق أرجو من أحد الحاضرين أن يطرح فهمه لكلمة الحق والمراد منها.

❑ الدكتور نور بخش: أتقصد التصور القرآني؟

ـ كلا، المطلوب هو التصور الاجتماعي المتعارف، فماذا نعني حينما نقول: هذا حق وهذا باطل؛ ولماذا تقول باطلًا، ولِمَ لا تفهم

الحق، ولماذا لا تتبع الحق، ولماذا لا تنصاع إلىٰ الحق... تلك الكلمات التي نستخدمها في حواراتنا اليومية.

ليتفضل أحد الحضور ويوضح المفهوم من كلمة «الحق» التي نطلقها في حديثنا العادي اليومي، فنقول: هذا حق وهذا باطل، ونطلب من الآخرين أن يقولوا الحق ويجتنبوا الباطل.

□ السيد كريمي: في القضايا الاجتماعية يتحدّث الإنسان عن الحق حينما يتضرر من قضية معينة، ويقول: إنّ حقي قد ضاع. وحينما يكون في موقع مقابل لهذه الحالة يتحدّث أيضاً عن الحق، ويتصور أنّ الآخرين علىٰ باطل.

ـ لم أطلب المعنىٰ السوقي للحق، وإنّما سألت ماذا تفهمون من هذه الكلمة! فيما كان جوابك عن الحق متىٰ نلجأ إليه ومتىٰ نعرض عنه. لقد كان السؤال واضحاً: ما هو فهمكم لهذا المصطلح؟ وما هو المراد منه حينما تقول إنّ المرء يلجأ إلىٰ الحق حينما يكون في نفعه. ويتّجه إلى الباطل عندما يكون بضرره فما هو المقصود بهذا الحق؟

□ الدكتور نور بخش: الحقّ في اللغة هو وضع الشيء في محلّه، مثلما تثبّت قاعدة الباب في مكانها. وهو بشكل عام في مقابل الظلم الذي يعني عدم وضع الشيء في محلّه. فالحقّ هو أداء كل شيء في مكانه ووقته.

ـ تصورّك للحق إذن هو وضع الشيء في محلّه. حسناً، هذا تصوّر للكلمة؛ وما تفضّلت به كان مصاديق للحق، كالصدق والصراحة والنزاهة، أما سؤالي فهو ماذا تفهم من الحقّ بنفسه؟

□ السيد كريمي: عن المعنىٰ العرفي، يبدو أن ما تداوله العرف والشّرع وتوافق عليه النّاس هو الحقّ، ونسمّي ما هو خلاف ذلك بالباطل.

ـ طبقاً لهذا التوضيح، فقد اتخذ الموضوع منحىً آخراً، فإذا كان السؤال ما هو الحقّ؟ قيل: هو ما قبله عامّة النّاس. والباطل أو غير الحق هو ما رفضوه. هذا هو استنتاجه للحق... أرجو الانتباه، إنني لم أسأل عن معيار الحق والباطل، وما تفضّلت به يرتبط مباشرة بمعايير الحق، كما يرتبط بالسؤال الذي طرحته حول مفهوم الكلمة ومعناها.
من هذا الحوار الذي جرىٰ بيننا نستنتج أنّنا كثيراً ما نستخدم مصطلح ما عدّة مرّات يومياً، لكننا نحتاج في تفسيره وتوضيح معناه إلىٰ الدخول في بحث تفصيلي.

☐ المهندس تاج: أعتقد أنّ الحقّ هو الواقع والحقيقة الموجودة في نظام الخلقة، وهو الشيء الموجود في المفاهيم العليا.

ـ هل هو شيء، أم كل ما هو موجود؟ هل الحق ما هو موجود، أم أنّ الموجود يتوزّع علىٰ قسمين: حق وباطل؟

☐ المهندس تاج: الحق هو شيء ثابت وموجود، وما سواه وما يقابله هو الباطل، أي أن هناك معيار اسمه الحق.

ـ ما هي مواصفاته؟ إننا نريد أن نعرفه. تمعّنوا في السؤال: تارة يقال إنّ الحقّ ما هو موجود وواقع. حسناً، هذا تعريف جيّد وواضح، حيث نقول إنّ كلّ ما له حقيقة وواقع فهو الحق، ولكن ما هو الحق؟ إنّه الواقع والموجود، والباطل ما ليس له وجود. وتارة يقال أنّ ما له واقع ووجود يتوزّع علىٰ صنفين: الأوّل الحق، والثاني الباطل. وهنا أسأل: ما هي الخصائص التي تُميّز مثل هذا التصنيف؟

إنّ نفس فهمنا لمصطلح «الحق» هو موضوع يستحق التأمّل والدراسة، أين نستخدم كلمة الحق، وبأي معنىٰ؟ وماذا نقصد من كلمة الحق حين نطلقها؟ وما هي المعايير والخصائص التي يجب أن نأخذها بعين الاعتبار حينما نقول إنّ هذا حق وذاك ليس بحق؟

الآن وقد اتضح أن تصوراتنا العرفية غير واضحة وغير كافية إزاء هذه المفردة، لا بد أن نخوض في بحث تحليلي للموضوع؛ وقبل أن أتطرّق إلىٰ بحث الحق والباطل في القرآن الكريم، إسمحوا لي أن استكشف معنىٰ الحق والباطل وما هو المقصود منهما أساساً، ثم نرجع إلى كتاب الله لنتعرّف على رأيّه في هذا الصدد.

الحقيقة والواقع:

إنَّ استخدام كلمة الحق وكذا كلمة الباطل كان شائعاً قبل نزول القرآن أيضاً. لذلك علينا قبل كل شيء أن نتعرّف أولًا علىٰ معنىٰ هذه الكلمة:

إنَّ للحق بشكل عام معنيان: الأوّل، الحق العيني أو بتعبير آخر الحق العلمي أو الفلسفي. والثاني هو الحق بمعناه الحقوقي. أي أن كلمة الحق تستخدم في مجالين مختلفين ورؤيتين مختلفتين. فالحقّ العيني هو عبارة عن ما يتحقق في عالم العين، وبهذا فإنَّ الحق هو الموجود الثابت كما جاء في أحد تعاريفه اللغوية، أي أنّ ما له عينية وواقع فهو حق وهو ثابت وموجود. وحينما نقول إن الشيء الفلاني متحقق، فمعناه موجود وواقع، وبنفس المعنى عندما نقول إنّ هذا الكلام حق، إنما نعني به انطباقه على الواقع العيني. أو بعبارة أدقّ هو انطباق الواقع العيني علىٰ هذا الكلام؛ [مثال ذلك] يصل شخص ما ويخبر عن وقوع اصطدام خطير في التقاطع الفلاني، ثم يأتي آخر وينفي الكلام السابق ويقول إن ما نقله ليس حقّاً، وقد تحدّث جزافاً؛ أو أن ما نقله لم يكن مطابقاً للحق والواقع، لأنّ الحادث كان بسيطاً وليس خطيراً أساساً كما صوّره. هذا المثال يوضح أن ما نقله الأوّل لم يكن متطابقاً بشكل كامل مع الواقع العيني، فالواقع العيني كان شيء، وما أخبره الأول كان شيئاً آخر. فالحقّ يعني هنا هو الواقع العيني، وحينما

ينطبق الكلام مع الواقع العيني ـ أو بتعبير أدقّ قلته قبل قليل: انطباق الواقع العيني مع الكلام ـ فيقال عندئذٍ إنّ ما أخبر به الشخص الفلاني ونقله هو خبر حق.

هذا احد معاني الحق، وهذا هو الحق العيني والعلمي. وحينما نقول إن العلوم المعاصرة التجريبية والعينية تريد أن تبيّن لنا ما هو حق، فماذا هو ذلك الحق؟ إنها تقصد ما هو ثابت. ففيما مضى كان ينظر إلىٰ الماء [على سبيل المثال] على انّه عنصر بسيط، ولم يتعدّ الوعي الإنساني هذا التصوّر. ثم اتضح بعد ذلك بأن الماء هو عبارة عن مادة مركّبة من عنصرين، ولم يمر وقت طويل حتىٰ اكتُشف بأن كلّاً من هذين العنصرين يتكونان من جزيئات أولية أخرى، فالعلوم تبين لنا ما هو حق وترفض ما هو باطل أي ما ليس له واقع.

الحق والباطل هنا يعود أيضاً إلىٰ تصورنا واستيعابنا لهما، وإلى ما نفكّر به حيال عملية الإخبار مثل ذلك الخبر، وكونه مطابقاً للواقع أم لا، وبالنتيجة فإنَّ كون ذلك الأمر حق أو باطل فإنّهما يدوران في مدار ما هو واقع. إذن فالحق يعني ذلك الموجود الثابت، وذلك الأمر الموجود في العالم الخارجي وثابت، والثبوت هنا ليس المقصود به اللفظ المقابل للحركة، إنّما يعني تحقق الشيء، وقد أشرت إلى أنّه مصطلح معروف جداً، ذلك لوجود ارتباط مباشر بينه وبين الحق، فنقول ذلك الشيء متحقق، أو ذلك الشيء غير متحقق. هذا أحد معاني الحق.

وهناك معنى آخر للحق يستخدم في الحقوق ويُطلق اللفظ علىٰ علم الحقوق، فيقال إن من حق الأمّة أن تقرر مصيرها بنفسها، أي أنّ لها الحق في أن تتدخل في تقرير مستقبلها والإمساك بزمام مقدراتها. تلك هي حقوق أولية إنسانية، إنّها حقوق أساسية وحقوق الإنسان كحق

الولد علىٰ الوالد وحق الوالدين علىٰ الولد وحقوق الضعفاء وإلىٰ آخره. فهل يعني مثل هذا الحق: الواقع؟ فمن حق الشعب أن يقرر مصيره بنفسه، لكن واقع الأمر ليس كذلك!.. نجد أن الحق يطلق هناك علىٰ شيء لا واقع له، ويُعبّر عنه بأسلوب آخر، فيقال: الحق ما يجب أن يكون سواء تحقق أم لم يتحقق. فنقول عن الأمّة التي تتدخل في تحديد مستقبلها وتقرير مصيرها، أن ذلك من حقها وأنها تُمارس عملياً هذا الحق، ليتطابق ما هو مُفترض مع ما هو واقع فعلًا، كما نقول عن الأمة التي ليس لها دور في رسم أفق مصيرها أن لها الحق أن تؤدّي هذا الدور وتوثّر في مصيرها رغم أنّها لا تمارسه عملياً؛ فمعنىٰ الحق في هذه الحالة هو ما يجب أن يكون.

عليه، يجد الحق معنيين أساسيين: ما هو واقع، وما يجب أن يكون. فعندما نقول: حق، في العلوم العينية إنّما نقصد بها المعنى الأول، أي ما هو موجود. وإذا استخدمنا اللفظ في مجال الحقوق والأديان والأخلاق فنريد به المعنى الثاني، أي ما يجب أن يكون. وثمّة تصوّر آخر عرفي للكلمة، فمثلًا يأتي مَن يقول بأن القمر قد انفصل عن الكرة الأرضية، فنقول له: يا هذا لا تقل ما ليس بحق، ما هذا الذي تقوله؟ إنَّ الاكتشافات العلمية الحديثة أثبتت وجود اختلاف بين القمر والأرض في تركيبات التربة وغيرها من العناصر الأولية، وما تقوله يخالف الواقع. فلا تقل باطلًا، أي لا تتكلّم خلافاً للواقع. إذن فما هو خلاف للواقع يعدّ باطلًا وليس حقاً. الكلام في هذا المقال لا يدور حول ما يجب وما لا يجب، إنّما المراد منه أن لا يتفوّه بحديث مخالف للواقع. [وفي مثال آخر] قد يقول شخص ما إنّ فلاناً من الناس يتعامل مع الضعفاء بتكبّر وغرور يبعثان علىٰ الاشمئزاز؛ فنصف هذا السلوك بأنّه عمل غير ذي حق؛ ونقصد بذلك أن هذا التصرّف يجب أن يتغيّر إلى خلافه. علينا إذن أن نلتفت إلىٰ هذين المعنيين

الأساسيين للحق: ما هو موجود وواقع، وما يجب أن يكون سواء كان واقع فعلًا أم لا.

وثمّة اصطلاحان متقابلان يتداولهما المثقفون في العصر الحاضر هما: الحقيقة والواقع، وهما مصطلحان مألوفان لديكم، فيستخدم اللفظ الأول في الحالات التي لا بد أن يحكم فيها الحق فيقال: هذا هو واقع الأمر. ولكن الحقيقة هي شيء آخر. بمعنى أن هذا الواقع يجب أن يتغير إلى خلافِهِ ليصبح حقّاً؛ فنقول: إنّ العدالة الاجتماعية حقيقة. أي لا بدّ أن تتحقق حتىٰ إن لم تكن في الحال الحاضر واقعاً عملياً مطبقاً في مرافق الحياة المختلفة. فالحقيقة المستخدمة في اللغة المعاصرة تعني الحق الذي يجب أن يكون، والواقع بمعنىٰ ما هو موجود فعلًا.

معيار الحق:

من البحوث التي تُعدّ من الركائز الأساسية لبحث الحق والباطل في القرآن ـ وهو ما أراد الدكتور التطرق إليه ـ هو الضعف الذي يواجهه في عالم اليوم مفهوم الحق، بمعنىٰ: ما يجب أن يكون.

كيف؟ إنّك تقول: لا بدّ من تطبيق العدالة الاجتماعية؟ لماذا؟ ولماذا هذه العدالة الاجتماعية؟ كلا يا سيد! على الإنسان أن يضرب ويأخذ ويحتال بمقدار قوّته وقدرته وأن يستحوذ علىٰ ما يستطيع. من أين أتىٰ هذا الوجوب وما هو معياره؟ لا نريد هنا أن نبحث عن مفهوم الحق في معناه الأوّل، لأنّ الأمر الواقع لا نقاش فيه. ولكن ما هو أساس ومبنىٰ الوجوب في لفظ الحق بمعناه الثاني حينما نقول: يجب أن يكون؟

ندع الموضوع للنقاش أيضاً، فلرب سائل يسأل عن أساس هذا الوجوب. الدكتور نور بخش قال: إننا نستند إلى القرآن في ذلك. أي

أننا نقول بما أنّ القرآن أمرنا بقول الصدق والحق، لذلك يجب قوله، ويجب أن يكون صحيحاً، ولا بدّ من تطبيق العدالة ودفع حقوق المحرومين لأنّ القرآن دعا إلىٰ هذه الأمور، بيد أن هذا المعيار خاص بمن يؤمن بالقرآن والوحي، ومعروف أن مثل هذه الحجة لا تنفع مع مَنْ لا يؤمن بالقرآن والوحي ، ولا بد من إقناعه بالقرآن أولًا لكي يؤمن بهذا المعيار.

والسؤال الآن: هل هذا هو المعيار الوحيد، أم أنّ هناك أصول أخرىٰ لهذا الوجوب؟

❑ الشهيد الدكتور لواساني: في كل موازنة يُصار أولًا إلى التحقق من الميزان وما إذا كان صحيحاً أم به خلل، ولا يمكن ـ بصورة عامّة ـ أن يكون لدى كل امرءٍ ميزان صحيح إلّا حينما يكون متوجّهاً إلى الله بكل وجوده، مطيعاً له في عبادته وتعبّده، منزّهاً نفسه عن المعاصي والآثام الروحية والجسمية.

ولهذا فإن الأنبياء والأئمة والأطهار والأولياء الصالحون هم المعيار في الحق والباطل وفي كل شيء وزمان، ولا يمكن لأيّ إنسان أن يضع معياراً خاصّاً به. ولو قيّض لنا أن نقضي بين الحق والباطل لفعلنا مثلهم. إن حُكمنا علىٰ الحق والباطل يعتمد أساساً علىٰ القرآن الكريم بالدرجة الأولىٰ، ثم على ما ورد عن الأئمة الأطهار؛ وعليه فإنّ معيارنا هو ما وصَلَنا عن الأنبياء والأولياء، ذلك لأنّهم هذّبوا أنفسهم وجعلوها ميزاناً لا نقص فيها ولا خلل، فالحق هو ما حكموا عليه بالحق، والباطل هو ما دمغوه بالباطل.

ـ بعبارة أخرىٰ فإنّ المحور ـ علىٰ ما تقصد ـ هو الإنسان النموذجي والقدوة، وإن الوجوب لا بد أن نعود فيه إليه لكي نستطيع

أن نقول أن الأفعال يجب أن تكون هكذا أو لا. أي أن نميّز هذا الوجوب عبر الرجوع إلىٰ الإنسان المثالي النموذجي، فإذا اتّسق عمل معين أو سلوك محدد أو فكرة أو تصور أو قول مع رؤىٰ ذلك الإنسان أصبح ذلك العمل والسلوك والفكرة والقول حقّاً، وإذا كانت العلاقة متقاطعة قلنا إنّه باطلاً. فهل هذا المعيار برأيكم يحل المشكلة؟

□ الدكتور مولوي: مفهوم الحق يختلف من بقعة لأخرىٰ في العالم، فثمّة اختلاف هائل بين الحق في جنوب افريقيا عنه في السويد، كما أن الكثير من الأمور يعتبرها سكان اليابان حقّاً، فيما لا يُنظر إليها هنا بهذا المنظار، فيحق للرجل مثلًا أن يصبح دلّاكاً في المنازل، فيما لا وجود لمثل هذا الحق هنا. إنّ ما نبحث عنه هو ما تفضّل به الدكتور لواساني في كون إن القرآن هو محور الحق والباطل، وإذا أردنا أن نقارن بين الحق عند كلّ الشعوب فإنّ لكل أمّة حقوقاً خاصة بها، وهناك أيضاً الحقوق الدولية بالتعريف الذي تفضّلت به، أي: ما يجب أن يكون، ولكن كلٌ بمعياره، لذلك علينا أن نبحث في موضوع الحق والباطل من وجهة النظر القرآنية.

ـ أرجو الانتباه إلىٰ حساسية الموضوع ودقّته حيث قررت الدخول إليه بهذا النمط من البحث رغم أنّه يتطلب شيئاً من الدقّة الفلسفية ويستغرق ربّما بعض الوقت، لأنّني استهدفت حلّ هذا اللغز قبل أن ننتقل إلى البحث المطلوب.

يُستفاد من كلام الدكتور مولوي أن ليس للحق معيار ثابت، ومن ثم فهو نسبيّ. إذن فما هو معنىٰ جلوسنا هنا للبحث في موضوع الحق والباطل من منظور القرآن الكريم؟ ذلك لأنّنا نرىٰ أن النبي ﷺ وبقية الأنبياء والأئمة عليهم السلام هم الأسوة الذين يفترض بنا أن نقتدي بهم، وهم

الميزان الذي نعرض عليه الأمور، وإنّ القول الحق وفصل الخطاب لدينا هو ما جاء به القرآن، ومن بعده السنّة التي تفسّره. إذن هناك أصل موضوعي متّفق عليه لدينا وهو المبنىٰ الذي يؤسس لاجتماعنا هنا، وإلّا لتغيّر موضوع البحث لو كان حديثي موجهاً إلى أفراد من اليابان. لو كان الأمر كذلك، لكان لزاماً عليَّ أن أدع كل هذه الأمور جانباً، ولأصبح مفهوم الحق قلقاً وغير مستقر. [لنستعين بمثال آخر] فقد كنّا نعتنق في حقبة من الزمن الديانة المانوّية، أي أن عدداً من أجداد الإيرانيين كانوا يؤمنون بما يقوله مانوي، وعليه فإنّ الحق والباطل عندهم ـ وحسب المعيار الذي ذكرنا ـ كان لا بد أن يعرض علىٰ أقوال مانوي ومواقفه ويقارن بها. ولكن هل هذا هو السؤال فقط؟ أم أنّه يتجاوز هذا الأمر؟ إنّه لَإنجاز نحققه لو أثبتنا وجود معيار يتجاوز ما أشرنا إليه، واستطعنا أن نجد له معياراً أبعد من هذا المعنى الثابت، ونضع علاقة بين الحق بمفهوم «ما يجب أن يكون» مع «ما هو واقع» أي أن يكون الحق بالمفهوم الأول منطلقاً للحق بمفهومه الثاني، وبذلك نصل إلىٰ معنىً راقٍ للحق والباطل، أعتقد أنّ ذلك سيشكّل انتصاراً وتوفيقاً، وعندها سيكون للدعوة العالمية معنى. وإلّا فإنّ مدار حديثكم لا يستبطن مسوّغات الإعلان العالمي عن أية دعوة حق، ما دام الأمر لا يتجاوز الحالة النسبية. لكن إذا تحقق ما نأمله؛ عندها سيجد المجتمع العالمي والنظام العالمي والفكر العالمي والفلسفة العالمية والدين العالمي والقانون العالمي المعنىٰ المناسب له. ولمّا كان القرآن يعتبر أنّ دعوة النبي ﷺ موجّهة إلىٰ العالم أجمع ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1] فكيف يمكن عرض مبدأ الحق دون أن يتوفر علىٰ معيار عالمي؟ ولهذا فإن الموضوع يرتبط مباشرة حتىٰ بالقرآن نفسه.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٥٨).

□ الدكتور مولوي: كان قصدي أن الآداب والتقاليد هي التي تختلف من بقعة جغرافية لأخرىٰ. ولا يمكن أن نتصور إنساناً لا يستطيع تمييز الحق في قرارة نفسه.

- نفهم من كلامه أن معيار الحق والأخلاق هو شيء، وكيفية تحققّها في السنن والمذاهب والمناطق هو شيء آخر. فما معنى ذلك؟

مثال آخر: إنّ التواضع والمودة بين أفراد المجتمع البشري أمر مُحبّذ في كل مكان، إنّه أمر مرغوب بشكل عام - إني أستعرض ما قاله هنا - غاية الأمر إنّ التعبير عن هذا الاحترام يختلف من منطقة لأخرىٰ، فقد يُؤدىٰ هذا التعبير في مجتمع ما عبر رفع القبعات، وفي مكان آخر من خلال الانحناء، وفي مجتمع ثالث بعبارة «السلام عليكم» ورابع بجملة «شالوم»[١] وخامس «كود مورنينك»[٢] وآخر «كوتن موركن»[٣] و«بون جور»[٤] وهكذا، فإنّ الاختلاف إمّا في العبارة أو في إسلوب التحية؛ وعليه فإن المحتوى واحد رغم تفاوت التعبير عنه. هذا ما أراد الدكتور مولوي طرحه.

ولا بدّ هنا أن أتطرّق إلى موضوعين، الأول: ما هو هذا المحتوىٰ العام؟ أفهم من كلامك أن الحق هو ما توافقه الفطرة الإنسانية؛ أي أنّ معيار الحق عند الإنسان العادي هو ما تألفه فطرته، وهذا المعنىٰ تحدَّث به أيضاً أحد الحضور حينما قال إنّ الحق هو ما وافقته العامّة، أي الإنسان العادي وليس الاستثنائي الذي يجب أن ندعه جانباً. حسناً، هل نستطيع أن نقول إنّ ملكية أدوات الانتاج أو الملكية

---

(١) السلام باللغة العبرية.
(٢) Good morning.
(٣) Guten morgen.
(٤) Bonne Jour.

الفردية هي حق. لكن لو جاءنا من يؤمن بالماركسية في مجتمعنا وقال إن ملكية أداة الإنتاج أمر مقبول في المجتمع البرجوازي يوافق عليه العامل كما يوافقه ربّ العمل، أو ان الملكية الفردية ـ على الأقل ـ هي أمر مقبول توافقه العامة، فهل يمكننا أن نقول حينها إنّ ملكية أدوات الإنتاج أو الملكية الفردية هي حق؟

إنّنا نريد أن نتوصل إلىٰ حصيلة لهذا النقاش؛ فقد أصبح شائعاً في بعض المدارس المعاصرة أن تضع مبنىً فلسفياً لهذا الموضوع بحيث يتمكن كل إنسان أن يسنّ وفق هذا المعيار تفضلت بها قوانين عالمية، ويدّعي أنّ ما ينفعني فإنّه ينفع كل المجتمع البشري، وليكون كل فرد واضعاً لسلسلة من القوانين العالمية الشاملة، وإنّه موضوع يستحقّ التأمّل والنقاش.

❑ الشهيد الدكتور لواساني: الحق هو معيار كمالي. ففي كل ظاهرة هناك اعتبار كمالي يُسوغ الحركة الاستكمالية للأشياء، ووجود واجب لا ينشأ وجوبه من الرغبة والميل والتحكّم والتفكّر ومن تراكم هذه المفاهيم. هذا ما قصدته.

❑ المهندس شكيب نيا: هناك اختلافاً في الرؤى حول «ما يجب أن يكون». وعلينا أن لا ننسىٰ أن المطروح أمامنا حالياً هو الحق والباطل في العلاقة بين الأفراد، وهي قضية مطروحة في المجتمع الذي يطمح إلىٰ أن يجد ضوابطاً تنظّم أمره. ولهذا ظهرت ماضياً وحاضراً وستظهر في المستقبل مذاهب مختلفة كل منها يدّعي أن ما نقوله هو الأفضل لإدارة شؤون المجتمع، فيصبح عندئذ معيار الحق والباطل هو القيمة والصلاحية التي تتوفر عليها هذه المدارس في مختلف المجالات بحيث تستطيع الادعاء بأنّها تقود المجتمع علىٰ الوجه الأفضل. وقد قيل الكثير عن الحق والباطل، ومما تطرقنا إليه هو إقامة نظام يعتمد علىٰ الفطرة الإنسانية. إنني أستنتج

بأنّ المعيار الذي يجب أن نبحث عنه في الحق والباطل هو ما يمكن بواسطته إدارة شؤون المجتمع بأفضل نحوٍ ممكن، ولا بد من الالتفات هنا إلى عنصري: المادة والمعنىٰ. وليس الاعتماد علىٰ الأبعاد المادية للمجتمع فقط.

ـ هل استطاع هذا التوضيح أن يقدّم معياراً بَيّناً؟ لاحظوا بدقة! إنّ في عالم اليوم أُمم وسنن وآداب وتصورات ومدارس ومعايير مستقرة. في الماضي كانت مجموعة صغيرة أو كبيرة تبدأ بالتشكيك في جدوىٰ هذه المعايير وصحتها، فيبدأ التكامل من هذه النقطة بالذات، حيث يكون الشك في صحة المعايير. عندئذٍ يقوم المشكّكون والمحافظون على المعايير الموجودة بالحوار والنقاش، وبعد هذه المرحلة يُصار إلىٰ انتخاب معايير جديدة علىٰ أنقاض القديمة، فما هو الملاك في الاختيار الجديد؟ ومعروف أن عالم اليوم هو عالم المشككين، إذ يعيش عصرنا أزمة تاريخية من حيث اتساع نطاق التشكيك في القيم واهتزازها، حتىٰ جرىٰ التشكيك في القيم المسلّم بها.

حسناً. . مادام الآن يريد أن يختار، فبأيّ معيار يجب أن يختار؟ نقول إذا ظل الأمر معلّقاً، وأصبح كل فردٍ يأخذ بالمعيار الذي يراه مناسباً. فإن هذا السلوك يُعد سلوكاً غير صحيح، فضلًا عن أنّه مناقض للتكامل.

❑ أحد الحضور: كل ما يأخذ مكانه في مسار العدل الإلهي فهو حق، وقد قرّرَت كل الأديان الإلهية هذا العدل للبشرية، فإن اتبعته البشرية أي إذا اتبعت العدل الإلهي سارت في طريق الكمال وبلغت المراد. إذن يمكن الوصول إلىٰ الحق فقط عبر مسار العدل الإلهي ليصبح معياراً عظيماً لنا. يمكن للقرآن أن يكون معياراً للعدل الإلهي ففيه كل ما يقتضيه هذا العدل.

ـ لاحظوا إن كل ما قلناه حول الحق ينطبق علىٰ العدل أيضاً.

فما هو العدل؟ إن تأجير المنزل بمبلغ شهري مرتفع في النظام الرأسمالي هو عدالة، بينما يُعدّ ظُلماً في النظام الاشتراكي حتىٰ وإن كانت الأجرة أقل من ذلك بكثير. أين العدل إذن وما هو تعريفه في هذه الحالة؟

إن أهمية البحث تنطلق من كونه الأساس لجميع البحوث التي تليه، لذلك لا بدّ من التوضيح ما إذا كان هناك معيار عالمي عام للحق والعدل أم لا.

الارتباط المنطقي لمعنى الحق في الثقافة القرآنية:

لاحظوا أن البحث ومنذ بدايته حينما قلتم إن الحق هو وضع الشيء في موضعه، والتوضيحات التي أثيرت فيه والتتمة التي طرحها الدكتور اللواساني، كله يكشف عن أن الأذهان ليست بعيدة تماماً عن المعيار العام للحق، غاية الأمر أن هذا النقاش يزيل الغموض عن الموضوع ويبلوره، ولولاه لما كان بالوسع توضيحه، أمّا الآن فقد تهيأت الأرضية المناسبة لشرح ما أردت شرحه، وأرجو أن يكون استيعابه ممكناً.

ليست ثمّة مشكلة حول المفهوم الأوّل للحقّ الذي يعني ما هو موجود أو الواقع العيني، ولهذا فقد مررنا عليه مسرعين. أمّا بالنسبة للمفهوم الثاني «ما يجب أن يكون» فلو أردنا أن نجعل منه حالة مماثلة للأوّل فليس أمامنا إلّا طريق واحد وهو أن يستلهم «ما يجب أن يكون» وينبع من مبدأ ما هو موجود. وقد بيّن القرآن الكريم هذا الطريق في واحدة من أسمىٰ الخصائص المتعلقة بالحق والباطل، فقد استخدم اللفظين في معنىً ثالث من خلاله يمكن أن نجد حلًّا لإشكالية هذا البحث. فما هو هذا المعنىٰ؟

إنَّ الحق بالمعنىٰ الأوّل يرتبط بالإنسان والعالم معاً، فإذا كنتُ طويل القامة فهذا حق وواقع، وكذلك لو كانت يدي قصيرة فهو حق، كما أن نحافة ذلك الشخص حق، وإن ذلك المنزل بتلك المواصفات هو أمر واقع وحق. وعليه فإن الحق بالمعنىٰ الأوّل هو الواقع العيني، والفكر والتصوّر هو مطابق لهذا الواقع، وهو ما يصدق علىٰ الإنسان وعلىٰ العالم. أمّا الحق بالمعنىٰ الثاني فبدا وكأنّه يرتبط بالإنسان فقط، لأنّ الوجوب وعدمه له علاقة بالإدارة والإنسان، هذه الأمور المفروضة مرتبطة بالإنسان.

وهكذا هو الأمر في جميع الأديان؛ فالإنسان والعالم هما ميدان العلوم الطبيعية، في حين أنّ الإنسان وحده هو محور العلوم الحقوقية بفروعها المختلفة (وفي الجانب المتعلق بالمجتمع والبيئة). القرآن الكريم يطرح معنىً ثالثاً للحق، فهو يقول إنَّ الله خلق السماوات والأرض بالحق، فماذا يعني هذا؟ يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾[1].

هل يريد القرآن أن يقول إنّ الإنسان المفكر يتدبّر ليقول إنّ السماء والأرض هما واقع عيني وليس سفسطة[2] ولا مثالاً[3]...؟ وهل يريد أن يقول إنّ الإنسان يتفكّر في خلق السماوات والأرض، ثم يتوجه إلى الله ليخاطبه بالقول إن ما يتفوه به السوفسطائيون ما هو إلّا وهم، وإن الأرض كما السماء هما واقع عيني؟ أم أن هناك معنىً آخر تستبطنه الآية؟ هذا الحق هنا وذلك الباطل إشارة إلى ماذا؟ وهل أن التكليف والوجوب وعدمه يرتبط بالسماء والأرض، أم بالله؟ وماذا يعني حينما

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٩١).

(٢) Sophist.

(٣) Idealist.

يقول إن خلق السماء والأرض حق، وإنّ مَن يتفكّر في خلقهما من العلماء الموحّدين المؤمنين المتعمّقين يقول ربنا ما خلقت هذا باطلًا؟ فما معنى ذلك؟ وما هو هذا الحق وذلك الباطل؟

هدفية العالم

إنّ المراد بالحق والباطل في القرآن هو ما يدور في خلد الكثير من الحاضرين من أن الحق هو الواقع العيني. ومن تلك الحقائق التي يدعونا القرآن إلىٰ معرفتها بوصفها أساساً لكل الأفكار التي تأتي لاحقاً هو أن عالم الوجود بما فيه من السماوات والأرض يتّجه في مسارٍ هادفٍ. هذه الهدفية السائدة في هذا الكون ترتبط حتىٰ بهدف الإنسان الذي يختاره بمحض إرادته. فقولنا أن عالم الوجود هو حق نعني به الهدف الذي يتابعه، وإذا عُدم هذا الهدف أصبح الوجود باطلًا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: ربنا ما خلقت السماوات والأرض عبثاً دونما هدف. و«ما» تربط المعنىٰ الثاني بالأوّل ليُنتج المعنىٰ الثالث الذي يراد منه هدفية الواقع العيني، أو بعبارة أفضل: الواقع العيني المنتظم الهادف، فالانتظام لا يكفي لوحده، بل يتطلب الهدفية أيضاً، بمعنىٰ الواقع العيني الذي ينتظم فيه كل شيء في مكانه.

الحق إذن هو انتظام الشيء في مكانه، وهو الأمر الذي تبادر إلى ذهن الحضور في مستهل البحث. فماذا يعني كون الشيء في مكانه إن عُدم المكان للشيء في عالم الوجود؟ إذن فلكل شيء مكان، وعندما يكون الشيء في مكانه نقول هذا حق، وإن كان في غير محلّه قلنا هذا باطل لأنه ليس في موضعه، ويصح هذا المعنىٰ للحق بمعنىٰ الوجوب أو المفروض أيضاً علىٰ عالم الطبيعة، فهذا الشيء حق أي أنه في المكان الذي يجب أن يكون فيه، فما معنىٰ يجب؟. أي أن يكون منسجماً مع الهدف الكلّي للخلقة والتكوين. ويجد هذا المفهوم للحق

معناه حتىٰ في عالم غير الإنسان كما لو آمنّا بوجود هدف كلّي للعالم، وقلنا إن عالم الوجود يتحرّك ويتجه في مسار يقوده إلىٰ هدف عام محدد؛ وعندئذ لن يكون الحق في عالم البشرية قلقاً عديم المعيار كلٌ يتّبع ذوقه في الوصول إليه؛ لن يكون هكذا إنّما سيكون جزءً من سياق الخلقة. فثمّة خطّة ومشروع من خلق الإنسان يؤول إلىٰ هدف معين وينسجم معه. فأي عمل هو عدل؟ أي من أعمالنا نحن البشر عدل؟ إنّه العمل الذي يكون متناسقاً ومنسجماً مع بقاء الإنسان في مسار التكامل وبلوغ الهدف المحدد له في عالم الخلقة. وترتبط مع الحق حينئذ الأخلاق والشرع والحقوق، لكن ليس مع الحق القلق، وإذ وُجد ثمة اختلاف فهو في معرفة الحق وليس في الحق نفسه.

فالحق نفسه ليس عقداً واتفاقاً، إنّما هو واقع عيني، والاختلاف حوله كالاختلاف حول عنصر الماء الذي كان يعتبر عنصراً بسيطاً في زمن ما، ثم اكتشف أنه مركباً، فذلك لم يغيّر من الواقع شيئاً، كما أن الحق لا يتغير بتغير التصورات حوله، ولا يهمنا هنا لفظ العقد سواء أطلقناه علىٰ الحق أو على حالة الماء أم لم نطلقه، بقدر ما تهمّنا التصورات المختلفة لواقع واحد، أي اختلاف المعرفة إزاء شيء مستقر في مكانه، وبناءً على ذلك تتباين معرفتنا للحق والباطل، وقد ينظر إلىٰ موضوع معين في اليابان ـ مثلًا ـ علىٰ أنّه حق، في حين لا ينظر إليه هنا بهذه الرؤية، لماذا؟ لأنّ فهم الشخص الياباني لهدف الإنسان والسياق الذي يتناسب مع هدفه قد يختلف عن فهم الصيني وعن فهم الأوروبي، والمهم هو أن نعرف أن هناك شيء موجود وواقع، ولا يدور الموضوع في فراغ، ولا يعتمد علىٰ مجرد عقد واتفاق ليس إلّا.

وعليه فإنّكم تلاحظون أن الحق بالمعنىٰ الثاني، يعني ما يجب أن يكون عليه السلوك الإنساني فإنّه يعود إلىٰ الحق بالمعنىٰ الأوّل أيضاً، أي إلى

ما يجب أن يراه الإنسان في منظومة الوجود الحقيقية، ودعوة القرآن في هذا الإتجاه علمية بحتة وليست دينية أو أخلاقية أو حقوقية: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]. التفكر الذي يدعو إليه القرآن هو من النوع العلمي العيني، ليوصل من ثمّ إلىٰ أن خلق هذه السماوات والأرض ليس باطلاً، وإنّما هو يتّجه نحو هدف معين. وهذا النمط من التفكير العلمي هو القاعدة فيما هو واجب ومحظور ومندوب إليه ومنهي عنه في المسائل الحقوقية والأخلاقية والإنسانية، والدّين الأحَقّ في أن يُتّبع ـ من المنظور القرآني ـ هو ذلك الدين الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي الذي يعود في ضروراته وواجباته ومباحاته وأوامره ونواهيه إلى المسار التكاملي لعالم الوجود بما فيه الإنسان الأصيل المتحرك.

هذا هو الموضوع الأوّل حول المرجع الذي يرتبط به الحق والباطل حسب الرؤية القرآنية. لم أكن أتصور هذا القدر الكبير من الاعتماد القرآني علىٰ محور الحق والتطرق إليه بهذا الحجم من الآيات قبل أن أعلن موافقتي علىٰ تناول هذا الموضوع في هذا المجلس مع الأصدقاء الذي اضطرني إلىٰ استخراج الآيات المرتبطة بالحق والباطل واللهو وأمثالها من القرآن، كما تم استخراج أحاديث أكثر من ذلك من نهج البلاغة فضلًا عن سائر كتب الحديث. ولا يسع الوقت في هذا اليوم لتلاوة الآيات الكثيرة المستخرجة حول هذا الموضوع، ممّا سنؤجله إلىٰ المجلس القادم بإذن الله لأنّنا سنعود إلىٰ النتيجة المستحصلة مستندين فيها علىٰ الآيات، وسنرىٰ أنّ أفضل ما يمكن أن نصف به الإسلام والقرآن هو أنه الدين الذي يدعو إلىٰ الحق، والكتاب الذي ينادي بالحق. وهو ما أرجو متابعته وملاحظته بدقة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٩١).

يسعدني أن نستفيد في هذا المجلس وفي المجلس القادم من الآراء الانتقادية والفاحصة حتىٰ نصل إلى النتيجة المرجوّة في موضوع الحق والباطل، وكونه ليس قانوناً نسبياً، وإنّما ينطلق من معيار رئيسي، وليس المقصود من ذلك أن يكون قانوناً جامداً، وإنّما هو قانون متحرك، ذلك لأنّ التحرّك شيء والعقد والاتفاق شيئ آخر، فالحق والباطل ليسا من العقود، إنّما ينطلقان متحركين من قانون ثابت كما هو الحال مع الطبيعة، إذ يُقال أن الطبيعة متغيرة، لكن آلية هذا التغير والقوانين الحاكمة عليه هي ثابتة، وهذا ما نريد أن نصل إليه بإذن الله فيما يتعلّق بالشرع والحق والأخلاق.

أسئلة وأجوبة

□ الدكتور مولوي: لديّ توضيح فلربّما حصل خلط بين ما قلته وبين التصوّر الذي تفضّل به السيد بهشتي. فلم أكن أقصد أن الحق هو ما يُفَسّر في كل منطقة بحسبها، إنّما عنيت به أنه مطلق. غير أن البحث الذي نتناوله هنا هو الحق القرآني وهو مطلق ونتخذه نحن معياراً، ولا شك في أنّه سيأتي اليوم الذي ينتشر فيه هذا الحق في العالم أجمع، ويجتمع كل أهل العالم عليه. ما أُريد أن استفسر عنه هو المعنىٰ الثالث للحق الذي طرحتَه هنا، فلقد أطلقنا دوماً علىٰ ما يرتبط بهذا البحث مصطلح «الهداية» ذلك أن الدنيا وما فيها خلقت بالحق وليس بالباطل، مع وجود «هداية» نحو هذا الحق، فأين نضع هذه «الهداية» في سياق المعنىٰ الثالث للحق؟

مفهوم الهداية

الهداية هي عبارة عن علائم معرفية تجاه هذا الحق، والهداية ـ في الحقيقة ـ هي اتجاه نحو هذا الحق، وهي الآصرة التي تربط بين الهادي والإنسان وهذا الحق، وليست هي الحق بذاته. فالحق إذن هو

موضوع الهداية وهدفها. أؤكد مرة أخرىٰ علىٰ الاهتمام ببحوث علم الاجتماع والحقوق والفلسفة وفلسفة الحق. ولهيجل في هذا المضمار كتاب شامل، وهو من الكتب الجيدة في هذا المجال. فقد حظي هذا الموضوع باهتمام منذ القدم، وظهرت حوله آراء عديدة، وكنت بدوري متلهفاً منذ مدة طويلة لمعرفة الدعوة التي يوجهها القرآن الكريم والوحي الإلهي والإسلام العزيز فيما يتعلّق بهذه المسألة الأساسية المهمة.

ليس الأمر كما يتصورون بأن الإسلام يدعو إلىٰ مجرّد مجموعة من المسائل التعبدية الجزمية، إنّما هو أوسع من ذلك بكثير، فالإسلام هو دعوة عالمية لأنّ قاعدته هي عالمية، دعوته عالمية لأنّه جعل الحق علىٰ أساس هذا المبنىٰ العالمي، وهو دين سمح واسع الصدر بحيث يدعو أولًا إلىٰ المعرفة، ثمّ يدلّ علىٰ الطريق إلىٰ معرفة الله والوحي. وإلىٰ تمييز الفطرة السليمة عن السقيمة عبر تطبيق التصورات والهداية الفطرية مع المسار التكاملي بمعناه الواسع الذي يضمّ جميع الرؤىٰ فوق المادية في العالم ومنها الرؤية الإسلامية. ولمّا كان هذا الأساس سامياً رفيعاً عالمياً فإن دعوته إلىٰ الحق نفسه هي دعوة عالمية حقاً وحقيقة.

لهذا نرىٰ أن الحق الذي سمعتم عنه في شتّى البحوث حتىٰ الآن، أي الحق بمعناه الثاني يرتبط بالعلوم الإنسانية. ونرىٰ أن هذا «الوجوب» أصبح يحمل معنىً متماثلًا في العالم وفي عالم الطبيعة، فنقول إن الطبيعة «يجب» أن تكون بالشكل التالي، أي «يجب» أن تتحرك في مسار التكامل. تحدوني رغبة جامحة بعد دراسة مستفيضة لكتاب هيجل أن يُصار إلىٰ كتابة هذا البحث الذي آمل أن نصل فيه إلىٰ النقاط الدقيقة التي يتضمنها ذلك الكتاب. وإذا استطعنا طرح هذا

الموضوع بنحوٍ تطبيقي تفصيلي واسع يأخذ بالاعتبار الفلسفات المعاصرة، فتلك هي من أفضل أنواع الدعوة إلى الإسلام في عالم المفكرين والمثقفين المتحركين في العالم.

- الشهيد الدكتور فيّاض بخش: سؤالي يتعلّق بالارتباط بين الحقيقتين التي ذكرتم، الأولىٰ: الحقائق العينية الموجودة في الطبيعة والتي لا شك فيها وتعود إلىٰ الحقيقة النهائية. ولكن ثمّة حقيقة واحدة بين مجموعة «الواجبات» المرتبطة بالإنسان، بمعنىٰ أن من بين العقائد والحقائق التي ـ يلتزم بها الأفراد حسب معايير مختلفة ـ هناك واحدة هي التي تتوفر علىٰ الحقيقة، وهذه الحقيقة هي التي أشار إليها أحد الزملاء، أي طريق الأنبياء والصديقين والقدوات، بلحاظ ما نكرره خمس مرات يومياً في صلواتنا ونحن نقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ وبلحاظ الآية الكريمة: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[1] حيث يعتبر صراط الحق الوحيد الذي نرجوه ونتبعه. لِمَ لَمْ يصدر منكم أي تأييد لما أشار إليه زميلنا من أن الحق هو المنهج الذي يسلكه هؤلاء الأفراد الأسوة استناداً علىٰ الآية أعلاه وعلىٰ ما نسأله يومياً خمس مرات من الله تعالىٰ أن يهدينا إلىٰ الصراط المستقيم؟

بدء الإسلام كان الفكر التحليلي

شكراً دكتور. كلّما كثرت الأسئلة اتضحت لي أهمية تسليط المزيد من الضوء علىٰ هذه النقطة الأساسية وهي نقطة البداية والمرتكز الرصين. بالمناسبة يا سيد فياض بخش إنّنا نؤكد علىٰ أن

---

(١) سورة النساء، الآية: (٦٩).

الإسلام لا يبدأ من الوحي، التفتوا إلى أنّ الإسلام لا يبدأ بالوحي والنبي، إنّما يبدأ من أوضح المعارف البشرية، ويلتقي في مساره بالوحي والنبوة، ليواصل طريقه بكلا العقل والوحي. لا أريد أن أقول إن الإسلام يبدأ بالعقل لئلّا تتصوروا بأنني أقصد العقل الفلسفي، ومن الأفضل أن أستعيض عن كلمة العقل بعبارة الفكر التحليلي والمعرفة المستنيرة التحليلية لهذا الفكر، الإسلام يريد من الإنسان أن يبدأ من أبْدَه النقاط وأوضح المسارات من خلال المعرفة المستنيرة لفكره التحليلي، ثم يتقدم ليصل إلىٰ الوحي والنبي كواقع عيني، وإنْ لم يصل إلىٰ ذلك فلن يصل إلىٰ الدين الإلهي حقيقة. إذن يتحرّك الإنسان باتجاه واقع عيني باسم الوحي، ليؤدي من ثمّ الوحي دوراً في معرفته وسلوكه.

هذا ما قلتُه، إننا إذا كنّا نريد الحق، ونريد أن نقول على أية قاعدة يستند ونجعل أول قاعدة هي النبي والقرآن، عندئذٍ لا نكون قد سلكنا طريق القرآن. إن منهج القرآن هو المنهج القائم على العقل والعلم، ولهذا فهو منهج عالمي، ذلك أن البداية التي يدعو إليها كل البشر هي العودة إلىٰ الفكر التحليلي والمعرفة المستنيرة، هل تجد مدرسة في العالم تبدأ من غير هذه النقطة؟ فجميع المذاهب والمشارب الراقية تدعو إلىٰ التفكير والوعي والواقعية وعدم الوقوع في حبائل المخادعين، وهذا ما ندعو إليه أيضاً، لكننا نحث على رؤية الواقع كاملًا غير منقوص، ومن ذلك الواقع كَون عالم الوجود حقاً غير باطل، وإن الهدفية لا تخص الحياة وحسب وإنّما كل العالم (ومن قبيل الصدف هنا أن الدكتور شيباني ترجم كتاباً يحمل هذا العنوان: الحياة والهدفية) وهدفية الحياة هي واحدة من تجليات الوجود وهدفيته. إذن فإن نقطة البداية هي: كن واضح الرؤية، واعياً بصيراً واقعياً، واستخدم عقلك وكن ذا فكر تحليلي ومعرفة بعيدة المدىٰ، عندها أنظر، أنظر

إلىٰ الوجود الواقعي[1] الذي يتوفر علىٰ واقع عيني مع حركة دائبة ذات اتجاه معين وهدف محدد. لو اتضحت للعيان هذه الرؤية فعندئذ سيصل المرء في هذا المسار التكاملي إلى الوحي والنبوة والإنسان القدوة، ومنه سيواصل طريقه نحو الكمال.

لكن لا تجعل هذه النقطة هي المنطلق والبداية، وإذا سألت لماذا لم أعتبرها نقطة بداية، أقول إنّ هذا ليس ممّا اخترعته بنفسي وإنّما هو مطلب قرآني، فالقرآن يدعو الجميع إلىٰ التدبّر والتفكير، ثم الإيمان بالنبي. وهذا يدلُّ علىٰ أن نقطة البداية هي قبل النبي.

□ إحدىٰ السيدات الحاضرات في المجلس: اعتمد السيد الدكتور بهشتي في ما يجب أن يكون علىٰ ما هو موجود. إننا نقول إنّما هو موجود هو الحقيقة والمحض لأنّ طريقة تفكيرنا إلهية، بمعنىٰ أننا نعتقد أن الله الصادق هو الذي خلقها. ومن غير المعلوم أن يؤمن مَن لا يعتقد بالله بأنّ الوجود هو الحق فقط.

ـ أشكر هذا الاهتمام بمفهوم قبول التكامل؛ فقد فسّرنا الحق بأنّه المسار التكاملي والانسياب نحو هدف معين، لاحظوا أن الإيمان بالتكامل لا يختّص بالمؤمنين بالله وبالوحي فحسب، فها هي المدرسة الفكرية المهيمنة علىٰ العالم اليوم وأقصد بها المادية الديالكتيكية الماركسية[2] تقول إنّ العالم بأسره يتحرّك نحو التكامل وينتهي إليه، غير أنّها تَعجز عن توضيح الجهة التي يتحرك نحوها. فإذا قلنا إن نقطة البداية هي الاعتراف بواقع عيني و معرفته عبر الحركة التكاملية للعالم والطبيعة وهدفية الوجود، وهذا لا يختص بالمؤمن بالله، وليس شرطه

---

(١) Reality.

(٢) يلاحظ أن المؤلف ألقىٰ هذه المحاضرات بين الأعوام ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ حينما كان المد الماركسي في عز أيامه [المترجم].

الاعتقاد بالله، لأنّ ذلك متحقق عملياً في العالم الخارجي مما يعتقد به أيضاً غير المؤمنين أيضاً؛ ويكمن التباين الوحيد في أن المؤمن بالله يدرك هذا التكامل بصورة أتمّ، فيصل عبر هذا الطريق إلى الله، أمّا من لم يصل إلى الله، ولا يعتقد به، ولا يؤمن به؛ فهو لم يكمل طريقه. عيناً كفهمنا للماء على أنّه عنصر غير بسيط، وأنّه مركّب من الأوكسجين والهيدروجين، لو توقفنا عند هذا الحدّ من الاكتشاف واكتفينا بهذه الخطوة دون أن نتقدم خطوة أخرى، لكن حينما سارت البشرية في طريق التقدم واكتشفت أنّ الأوكسجين والهيدروجين ليسا عنصران بسيطان، وإنّما يتألّفان من أجزاء أخرىٰ، ولمّا استمرت في تقدّمها اكتشفت الالكترون والبروتون والنيوترون؛ فأينما يتوقف المرء يتجمد وعيه أيضاً عند تلك النقطة. حتىٰ بالنسبة للعلاقة بين الالكترون والبروتون والاختلاف بينهما فقد لوحظ أن ما قيل لم يكن دقيقاً، ولا بد من التفكير بقضايا أخرىٰ لاكتشاف هذه العلاقة. فالمسألة إذن في استمرار تكامل المعرفة، وإلّا فإنّ الإيمان بمبدأ هدفيّة الوجود لا ينحصر في الموحدين، كما أنه لا ينطلق من الاعتقاد بالله، إنّما يوصل إلىٰ هذا الاعتقاد لمن يتوسع في التفكير ويوغل في التحليل.

❑ السيدة نفسها: خلال نقاشي مع أحد الماركسيين قال إن دليله على عدم وجود الله هو هذه الكوارث والبلايا التي تضرب الطبيعة، لأنّها مستبعدة أن تكون من خالقها. لهذا فأنا لا أتصور بأن الماديين يرون بأن الوجود حق.

ـ هل كان يعرف معنىٰ الحقّ؟ لا بدّ أن أوضح معنىٰ الحق مرة أخرىٰ. سَلي هذا الماركسي ألا يعتقد بالتكامل في الطبيعة وهو يتحدّث عن البلاء والكارثة كالزلزال الذي يضرب منطقة معينة فيدمر الكثير من البيوت، ويفتح الأرض، ويقضي علىٰ عدد كبير من البشر ويبتلعهم؟

فإنّه يحمل في ذهنه معنىً آخراً لله لا بد من إصلاحه. إذن فلندع مسألة الله جانباً. لكن سليه هل أن مثل هذه الأحداث تقع بطريق الصدفة أم أن هناك علّة وراءها؟ وإذا كانت ثمة علّة ورائها فهل هي ناشئة عن قانون العلية ونظامها التكاملي أم عن نظام علية قلق ومضطرب؟ إذا كان نظاماً مضطرباً فلا يمكن أن يطلق عليه اسم نظام العلية، وإذا كان ناجماً عن نظَام علّية متكامل، فما هو المقصود به؟ إذن هذا واقع، لكنه يقضي علىٰ المئات من البشر، وهو يعتقد أن هذه العملية التي أودت بحياة المئات من البشر هي نقص في إدارة العالم لما لحق من ظلم بهذه المجموعة من البشر؛ هذا في الوقت الذي يعتقد ـ بوصفه إنسان ينتمي إلىٰ المذهب المادّي ـ بأن ما وقع ناجم عن هذا النظام المتكامل للعلية. ولمّا كان يتصوّر أن الله الذي نؤمن به هو كالإنسان الذي يؤلمه موت عدد من الأشخاص، يقول إنّ هذا يمكن أن يكون من فعل الطبيعة المنظمة، لكنه فعل يستحيل صدوره عن الله. هذا هو جوهر الإشكالية.

وهنا أنبّه إلى أهمية الإشكاليات التي تطرح علىٰ بساط البحث لأنّ عصرنا هو عصر السجال الفكري والعقائدي الذي فاق العصور السالفة التي كانت هي الأخرىٰ تواجه مثل هذا السجال، ولكن ليس بمثل هذه الجديّة، ومن المناسب أن تطرح مثل هذه الأسئلة ليُصار إلىٰ الردّ عليها.

□ أحد الحضور: ما أردت ذكره هنا هو أننا مسلمون ومعيارنا للحق والباطل فيما هو موجود، القرآن والسنّة. هذا هو الميزان الذي نعتمده، غاية الأمر أننا نقوم بإجراء مقارنة مع المذاهب الفكرية الأخرى. فعلينا أولًا أن ندرس الحق من وجهة النظر الإسلامية، ثم ننتقل إلىٰ المقارنة ونتعرف علىٰ آراء المذاهب الفكرية الأخرىٰ،

فإمّا أن نرفضها وفق معاييرنا، أو نأخذ بما يمكن القبول به.

المسألة التي تواجهنا هنا هو أننا نحتاج إلىٰ فترة من الوقت لإجراء مثل هذه المقارنة مع المذاهب الفكرية الأخرى، فغاية أملنا أن يستمرّ البحث علىٰ هذا المنوال حتىٰ نصل إلىٰ النتيجة المرجوة، بيد أننا لو أردنا معالجة هذه الموضوعات مهما كانت مهمة في مجلس أو مجلسين فإنّ النتيجة ستكون إثارة إشكاليات وأضافتها إلىٰ الإشكاليات السابقة.

ـ ينبغي أن أشير إلىٰ نقطتين: الأولىٰ، علينا أن نتوصل إلىٰ النتيجة ونقترب منها ما استطعنا إلىٰ ذلك سبيلًا، وبدوري رأيت من الضروري وأنا أتعهّد هذا البحث أن أجد مثل هذه الفسحة، لذلك بدأت هذا المجلس ـ وخلافاً للمنهج المتبع ـ بالنقاش، لكي يَستقر المعنىٰ في الأذهان؛ وقد حاولت مراعاة ذلك بما تسمح به مقرراتي وبرنامج المجلس.

الثانية، إن الوصول إلىٰ الثمرة والنتيجة المطلوبة في مثل هذه المجالس يكون نادراً عادة، وهو قاعدة تنطبق في كل العالم. فحينما يُلقىٰ البحث علىٰ مستوىٰ العموم مع الخروج بنوعٍ من النتائج المحددة، فإن استيعاب الناس له هو استيعاب تلقيني ولَيس تحليلي؛ ويعمل الملقّن علىٰ التلقين مراعياً جميع الملاحظات التي ذكرتها، ويتقبل المستمع بدوره هذا الكلام بصورة تلقينية. أمّا في مثل هذا المجلس فليس هناك تلقين شئنا ذلك أم أبينا، ويبقىٰ ذهن البعض مشغولًا بهذه المسائل سواء طرحناها علىٰ بساط البحث أم لا. وعلينا أن لا نتوقع في مثل هذه الحالات التوصّل دائماً إلىٰ نتيجة حاسمة، رغم أنني أشرت إلى ضرورة الوصول إلىٰ مثل هذه النتيجة ما استطعنا إلىٰ ذلك سبيلا، وإذا لم نوفّق لها في حالة أو حالتين فلا ينبغي أن ننزعج من

ذلك، ولا ضير في أن نتحمّل المسؤولية معاً ونُسْعِف من أعيته الحيلة في التوصل إلىٰ النتيجة. إنّها ملاحظة في غاية الدّقة. علينا أن نتابع البحث في الوقت الذي يجب أن لا نتأمّل في مثل هذه المجالس الوصول إلىٰ نتيجة قطعية، شريطة أن لا نعدم السعي للوصول إلىٰ ما يمكن الوصول إليه من نتائج كلية منظمة، وأنا بدوري علىٰ استعداد أن أتوسّع في الموضوع، ثم أَلملم أطرافه ما سمحت الفرصة المتاحة لي بذلك، وأرجو أن أوفّق لتنظيم الوقت المتوفر لتحقيق ذلك آخذاً بنظر الاعتبار الملاحظات التي ذكرتموها في المداخلة الأخيرة.

وبخصوص الموضوع الذي طرحته أنا، فلم يكن المقصود منه مناقشة المدارس الفكرية، إنّما فهم معنىً سامٍ للحق والباطل تناوله القرآن الكريم الذي هو صلب بحثنا، وما هذه المقدمات التي سُقناها إلّا تمهيداً لبلوغ هذا المعنىٰ الراقي الذي طرحه القرآن الكريم، والذي يستطيع أن يعالج مشكلة أساسية في موضوع القيم.

□ المهندس شكيب نيا: سؤالي مختصر ويرتبط بتعريفَيْ الحق والباطل: بمعنىٰ ما هو موجود ومعناها الآخر ما يجب أن يكون عليه، ثم العلاقة التي تربط بين الإثنين والتي استنتجتم من خلالها بأنّ الحق هو ما ينطبق علىٰ الهدف الكلّي لعالم التكوين. من هذا المنطلق أسأل وأقول لنتقدم قليلًا لأنّ هذا الموضوع ربما سيطرح في المجالس المقبلة. ولمّا كنت مستعجلًا بعض الشيء، وقلت إنّ المجلس القادم مخصص للآيات القرآنية، وددت أن أعرف ما هو الهدف الكلّي للعالم الذي أشير إليه في هذا البحث؟ وإذا كان الجواب هو التكامل، فماذا يعني الكمال؟

ـ أقولها بصراحة إنّ هذا السؤال هو خارج إطار بحثنا الحالي. إننا نريد أن نفهم معنىٰ الحق والباطل وآياتهما وفق المنظور القرآني،

وما أشرت إليه هو أن القرآن حينما يتطرّق إلىٰ الحق يأخذ بعين الاعتبار إلى مسألة التكامل والاستكمال والبحث عن الكمال والمسار التكاملي للحركة في عالم الطبيعة، وهو ما عقّب عليه الأخ السائل هو أننا قد فهمنا أنّ الحقّ هو عبارة عن كلّ أمر منسجم مع المسار التكاملي لعالم الطبيعة والبشرية، فما هو هذا المسار التكاملي؟

☐ المهندس معين فر: كلّا، قلت إذا كان المعيار هو ما ذكرتم، فإنّه سيختلف أيضاً. إذا كان المعيار هو الهدف فإنّه سيختلف من شخص لآخر، أي أن الإشكالية التي طرحتها حول الحق يمكن أن تطرح هنا أيضاً.

ـ أوجّه عناية الأخوة والسيد المهندس معين فر إلىٰ هذه الملاحظة: أنا لم أقل لا يوجد هناك اختلاف، إنّما قلت إنّه ليس من العقود، وواضح هو الفرق بين الإثنين. فتارة نناقش في أيهما يدور حول الآخر، الأرض أم الشمس، ونختلف عليها لأنّها من المسائل العينية، فقد جرىٰ التصور في هيئة بطليموس بأنّ الأرض ثابتة والشمس تدور من حولها، لكن تطور الوعي البشري أثبت أن الأرض هي التي تدور حول الشمس، أمّا في ما يتعلّق بالحق والباطل بمعناه الثاني فلا يعتمد علىٰ معرفتنا، فعندما يقول أحدهم إنّ هناك واقعاً يمكن معرفته ويجب أن نسعى لمعرفته، لكن هناك اختلاف حوله، اليوم يُعرف منه عُشْرَيْن، وغداً ستتطور إلىٰ ثلاثة أعشار وهكذا أو تتخلّف وتعود إلى العشر لا فرق؛ وقد يُقال إنّ الحق والباطل بالمعنىٰ الثاني هو من العقود، وجرىٰ الاتفاق على أن يكون الحق هنا بهذه الشاكلة وهناك علىٰ تلك الصورة. وما ذكرته هو أن هذا الاختلاف حول أمر عيني وليس حول أمر هو من العقود. وهذه هي نقطة الفصل المهمة. وحينما قلنا الحق بمعناه الحقوقي، أي في باب المسائل الأخلاقية والدينية وما

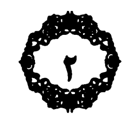
هو واجب وما هو محظور، فلا بد من العودة إلىٰ الحق بمعناه الواقعي والعيني بوصفه جزءاً من المسار التكاملي. لذلك فإنّ ما أردنا التوصّل إليه في حوارنا أساساً هو أن الحق والباطل ليسا من العقود، إنّما هما من الأمر المعرفي، وفي المعرفة اختلاف.

- الشهيد الدكتور لواساني: وددت أن أطرح بعض التوضيحات. فقد قلتُ في التعريف الذي ذكرته قبل لحظات بأنّ معيار الحق هي صفة الكمال التي تبرّر الحركة نحو كمال الأشياء، والوجود هو واجب موجود لكنه لا ينقاد إلىٰ رغبات المفكرين والعلماء وميولهم ودوافعهم وجهودهم، إنّما هذه الأخيرة تهرع لتلقّي هذا المفهوم، وهو التعبير الذي أشار إليه الدكتور بهشتي بالتفصيل. أمّا الملاحظة الأخرىٰ حول موضوع الحق هي وجود نوع من الاشتراك البسيط بين التعبيرين الفلسفي واللغوي لِلّفظ، غاية ما هنالك أن الفلاسفة ربّما اعتنوا بمسألة الحق والصدق أكثر من غيرها.

ـ هذه مسألة منطقية وفنية لم أرغب في طرحها هنا، لكن الدكتور أبىٰ إلّا أن يتناولها ويناقشها حوزوياً، إنّه مصطلح منطقي، وهو أنّك قد تجد أحياناً تناسقاً بين التقرير وبين الواقع بحيث ينطبقان علىٰ بعضهما، فيما يختلفان في أحيان أُخرىٰ، فيتعارض التقرير مع الواقع ليكون كذباً وباطلًا. في الحالة الأولىٰ حينما يتطابق التقرير مع الواقع، والواقع مع التقرير تستخدم كلمتان في صفة التقرير، فيقال مرّة إن هذا الرجل قال صدقاً، ويقال أخرىٰ إنّه قال حقّاً. فلو افترضنا وجود تقرير مكتوب مثبّت فيه أن في يدي ساعة، فإنّ هذا التقرير مطابق للواقع، وأحياناً يُقال إنّ هذا التقرير صادق، عندئذ تكون النظرة الأولىٰ إلىٰ التقرير نفسه قبل أن تتجه إلىٰ الساعة ليُقال عندها إن هذا مطابق لذاك؛ وإذا قيل إن التقرير حق اتجهت الأنظار أولًا إلى الساعة ثم إلىٰ التقرير. لهذا فإن

الصدق والحق صفتان خبريتان، الأولىٰ باعتبار انطباق الخبر علىٰ الواقع، والثانية باعتبار انطباق الواقع على الخبر.

مهما يكن فهذا بحث حوزوي لم أر له ضرورة، لكن مداخلة الدكتور اضطرتني إليه.



الحق والباطل

تطرقنا في المجلس السابق إلىٰ أن للحق معنيان:

الأول: ما هو موجود وما هو واقع، وأي فكر أو كلام ينطبق علىٰ ما هو واقع.

والثاني: ما يجب أن يكون حتىٰ وإن كان الواقع مخالفاً له.

فنقول علىٰ هذا هو الواقع إلّا إنّه ليس بحق، لأنّه ليس كما يجب أن يكون عليه. ويُسمّىٰ الحق بالمعنىٰ الأوّل بالحق حسب المصطلح العلمي والمعنىٰ الثاني بالحق حسب المصطلح الحقوقي.

ثم ناقشنا فيما إذا كان المعنىٰ الثاني هو من العقود، في كل مكان، وفي أي نظام حقوقي. وبالشكل الذي يقبل به أي مجتمع وبأي معيار أو ميزان يحكم ذلك المجتمع. وما يراه ذلك المجتمع حقّاً وما يعتبره باطلًا؟ فربما عَدّ مجتمع ما فعلًا معيّناً بأنّه حق، بينما عَدَّه مجتمع آخر بأنّه باطل لوجود عقد اجتماعي غير مكتوب يرىٰ في مثل هذا العمل ظلماً وباطلًا. وهل الحق بالمعنىٰ الثاني أي «الحق الحقوقي» أو «ما يجب أن يكون» هو من نوع العقود أم لا؟

أشرنا إلىٰ استخدام القرآن الكريم معنىً ثالثاً لمصطلح الحق جدير بالاهتمام، بحيث يمكن أن يصبح أساساً للكثير من المباحث الإسلامية، وهو الحق بمعنىٰ هدفية نظام الوجود. فيؤكد القرآن في الكثير من الآيات على أنّ الله قد خلق السماوات والأرض بالحق:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1].

هل يراد من الحق في الآية الكريمة المعنىٰ الأول، وهل أرادت أن تقول الآية إننا خلقنا السماوات والأرض كواقع، وان علىٰ المسلمين أن يبتعدوا عن المثالية، وألا يتصوروا بأنّ ما في العالم هو مجرد وهم وخيال، كما قال الشاعر:

كلّ ما في الكون وَهمٌ أو خيال أو عكوسٌ في المرايا أو ظِلال[2]

بل إنّ ما فيها حق وواقع؟ أم أرادت أن توحي بأن الله خلق السماوات والأرض مع مراعاة القوانين والأعراف الاجتماعية؟ أم أن الآية قصدت المعنىٰ الثالث؟

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾[3].

ثمّة آياتٌ كثيرة في هذا المضمار وبسياقات مختلفة، كلها توحي بأنّ خلق السماوات والأرض وما فيهما تم بهدف معين وغاية محددة، لهذا يقول تعالىٰ بأنّه خلق السماوات والأرض بالحق لا بالباطل، وأن المؤمنين الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض يقولون ربّنا ما خلقت هذا باطلًا. والحق في إيجاد الوجود هنا يقابل الخواء في

---

(١) سورة الحجر، الآية: (٨٥).
(٢) لأبي العلاء المعري.
(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٩١).

الوجود وأقدميته "Nihilism" ويشكّل هذا الحق الذي يعني هدفية عالم الوجود ركيزة أساسية في النظام الإسلامي للحق في معناه الثاني. أي الحق الحقوقي. فأي قانون هو الحق؟ وما هو العقد الحق؟ وأي نظام اقتصادي وسياسي هو الحق؟ حيث يُصار إلى تطبيق القوانين الإسلامية وتنسيقها مع ضوابط الهدفية التي أعلنها القرآن لنظام التكوين وعالم الوجود.

لنتابع الآن الهدف الذي حدده القرآن لنظام الوجود ولنظام الخلق بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1].

فلم يكن في العالم كل هذا التنوع وهذه التشكيلة الواسعة من الأرض والسماء وجميع الكائنات، بل كان شيئاً واحداً علىٰ رتابة واحدة هو الماء السائل، فخلق هذا التنوّع علىٰ ستّة مراحل، لماذا؟ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

حسناً . . ماذا نفهم من هذه الآية؟ إنها تقول بصراحة إنّ هذا المقطع من الوجود الذي نعايشه بدأ بخلق السماوات والأرض من مادة متناسقة، وانتهىٰ بخلق الإنسان علىٰ هذه البسيطة المختلفة جداً، لكي يضع أمام هذا الإنسان ميداناً فسيحاً ومتنوعاً لعمله وسلوكه، يبرز فيه تسابقه إلىٰ الخيرات والحسنات، وتتضح مكنوناته عبر أفعاله، ليتبين من ثم الرابح من الخاسر. الآية صريحة في معناها، فهي تعني أن لهذا المقطع من الوجود هدف معين يتمثل في الاستعداد لتلقي أفعال الإنسان وأعماله لمعرفة مَنْ هو الأحسن عملًا، وهذا هو الهدف المعلن في الآية من أن خلق السماوات والأرض جاء بالحق وليس بالباطل. وعلى هذا يجب أن تنظم جميع القوانين والمقررات والنظم الاجتماعية بحيث

---

(١) سورة هود، الآية: (٧).

تجعل من هذا الميدان الواسع مستعداً لمثل هذا التنافس الحر والواعي بين بني البشر؛ وكل قيد في غير محلّه يفرض أو نقص أو أي عامل اجتماعي أو سبب مصطنع يلج هذا الميدان لمنع تحقق الهدف المعلن هو باطل وظلم، ومخالف للحق ولا بد من إزالته.

وهذه آية أُخرىٰ تلقي الضوء علىٰ الموضوع ببيان آخر ونسق آخر:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾(١).

لو كان الإنسان وعمله بلا جزاء من ثواب وعقاب لكان خلقه عبثاً، وما يُخرج خلق الإنسان من هذه العبثية والعدمية هي العاقبة التي تنتظر الإنسان والمصير الذي يؤول إليه عبر عمله في هذا المحيط المتنوع الواسع؛ إذن تلاحظون أنّ الحق في معناه الثالث يقابل العبثية، فالباطل هو العبث بعينه والحق هو ما ليس بعبث، وقد تكرر ذكر الحق والباطل في القرآن الكريم بهذا المعنىٰ الجديد، ليكون كل من هذين اللفظين مقابل الآخر. والقرآن يعلنها بصراحة بأنّ هذه الساحة وهذا العالم يجب أن يُعدّ لمثل هذا الأمر، وحينما يحين موعد بعثة الأنبياء يكرر القرآن أكثر من مرّة ويقول:

﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾(٢).

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾(٣).

وينقل القرآن عن النبي عيسى عليه السلام قوله: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾(٤).

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: (١١٥).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (٥٣).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٤٨).

(٤) سورة المائدة، الآية: (١١٦).

وينقل القرآن عن موسى عليه السلام قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1].

وينقل عن موسى عليه السلام أيضاً حينما يريد أن يذمّ فرعون قوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[2].

نفهم من هذا أن الانصياع إلىٰ الحق هو محور الإيمان والاعتقاد والدين، فالحق والإسلام هو دين الذين يعلنون استسلامهم للحق، ومن ثم فإن المسلم من يخضع للحق ولا يمارس اللجاجة والاستكبار والعناد حياله:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[3].

وفي سورة المائدة ورد ذكر للفئات التي تواجه النهضة الإسلامية:
﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾[4].

ثم يقول تعالىٰ:

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾[5].

بينهم القسيسين والرهبان الذين يحملون في أرواحهم استعداداً لقبول الحق، فما أن يدركوا أنّ دعوتك حقّ؛ حتىٰ يستجيبوا لها بالخضوع والخشوع والدموع فرحاً بتعرفهم علىٰ دعوى الحق الإلهي:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٠٥).
(٢) سورة القصص، الآية: (٣٩).
(٣) سورة الحديد، الآية: (١٦).
(٤) سورة المائدة، الآية: (٨٢).
(٥) سورة المائدة، الآية: (٨٢).

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۞ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

هذا حينما يريد القرآن الكريم أن يشير إلىٰ الكمال الإنساني لهذه الفئة غير المسلمة، أي غير التابعة للقرآن. أمّا عن المسلمين المستعدّين قلباً وطينة وباطناً لقبول الحق فيقول:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[2].

بهذا يشير القرآن إلىٰ أمر آخر هو الميل إلىٰ الحق عند الإنسان. فأين تكمن ذروة الإنسانية في الإنسان؟ تكمن في كونه ميّالًا إلىٰ العدل ومحباً للحق. ومن هو الإنسان الأكمل؟ إنه الأكثر تسليماً للحق. ومن هو الذي يتّجه نحو السعادة؟ إنّه الخاضع للحقّ. وما هي الأشياء التي تجر المرء إلى الشقاء والانحراف؟ إنّها المقاومة بوجه الحق. وما هي أسباب هذه المقاومة؟ إنّها الأهواء والشهوات وعبادة الذات والاستكبار وهذه كلها تتناقض مع عبادة الحق.

ثمة آيات في القرآن الكريم حينما تذكر الله تصفه بالحق المطلق:

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[3].

وأيضاً في قوله:

﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾[4].

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٨٣ و٨٤).

(٢) سورة السجدة، الآية: (١٥).

(٣) سورة المؤمنون، الآية: (١١٦).

(٤) سورة يونس، الآية: (٣٠).

عبادة الله هي ـ في أحد تعابيرها ـ عبادة الحق، ولكن ليس الحق العرفي ولا الحق النسبي، بل الحق المطلق، وهذا هوالفيصل المهم، ذلك أن القبول بنظام الحق يعود إلىٰ القبول بإلٰه الحق، ولأنّ معرفة نظام الحق من وجهة النظر القرآنية تتم من مصدرين:

الأول: هو العلم والوعي والعقل والفكر البشري.

والآخر: هو الوحي الإلهي.

فما يستطيع أن يُعرّف الإنسان علىٰ الحق، حينما يكون الحق في هذا العالم شعاعاً من الحق الإلهي وقوانينه في سياق هدفية الخلقة، إنّ ما يعرّف الإنسان على الحق هما: الفكر المباشر والوحي المحكم والمتقن هذه هي الهداية الإلهية التي بعثها الله بواسطة الأنبياء والرسل لهداية البشرية نحو الحق. ونستنتج من مجموع الآيات المذكورة أن هذا العالم حق، لأنّه ينطوي علىٰ هدف محدد، وأن الهدف الذي يجعل من هذا العالم حقاً هو عمل الإنسان وليس الإنسان نفسه.

الفرق بين منزلة عمل الإنسان في الإسلام وفي المذاهب المادية

من الأمور العجيبة حقاً وجود تقارب في موضوع عمل الإنسان بين الإسلام والمذاهب المادية في عصرنا الحاضر. فالماركسية تؤمن بأن المرحلة النهائية للتكامل التي نواجهها حالياً هي عبارة عن أن كائناً باسم الإنسان حَلّ علىٰ قاعدة التكامل ليضخ في هذا التكامل بعمله السرعة والوجهة المطلوبة. عليه فإن العمل البنّاء للإنسان هو ذروة تكامله الطبيعي والاجتماعي حسب ما يرىٰ هذا المذهب. القرآن الكريم يعد من جهته فعل الإنسان للخير بأنه الذروة والهدف لهذا التكامل، ولكن مع اختلاف بين الاثنين، لأنّ الماركسية تنظر إلىٰ العمل من الزاوية الانتاجية والاقتصادية، رغم أن هذا العمل يقترن مع السمو الذهني أو المثالي بشكله الهادف، بمعنىٰ أن العمل الاقتصادي للفرد

يجري لا من أجل الأجور ولا من أجل تنظيم حياته ولا من أجل الملبس والمأكل والمسكن، فهذه الأمور يوفرها له النظام الاجتماعي الاشتراكي. إنّما يتمّ للّذة والمتعة التي يستشعر بها العاملون. ولهذا عليه أن يعمل حسب طاقته ما دام أنه يلتذ بهذا العمل. ولكن أنى للمرء أن يحصل علىٰ هذه المتعة من العم الاقتصادي دون الاهتمام بمردوده من الطعام واللباس؟ وكيف يصل إلىٰ هذه المرحلة من اللذة دون أي عائد؟ هذا هو اللغز الذي يجب فهمه.

وفي المنطق القرآني نجد أنّ العمل مطروح أيضاً، ولكنه العمل الأحسن والأفضل الذي يصبّ في اتجاه نظام الحق، ذلك أن فعل الخير هو الذي يجعل الإنسان يشعر باللذة والمتعة. والآن بأي معيار يمكن معرفة العمل الصالح؟ أولًا: بالموازين البديهية الواضحة المتوفرة عند كل إنسان لمعرفة المعروف والمنكر والخير والشر، الأمر الذي ناقشناه بالتفصيل في مبحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجلس التفسير[١].

وثانياً: باعتبار أن العمل الذي يُؤدّىٰ في طاعة الله ينال رضاه وقبوله. ومهما يكن فإن العمل الصالح والحسن هو الهدف وذروة التألّق في هذا النظام، إذ يؤكد القرآن الكريم بصراحة علىٰ هذا الهدف، ويصف الإسلام حينما يذكره بالدين الحق:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾[٢].

بناءً علىٰ هذا، ما هو أفضل شعار نصف به الإسلام لو أردنا

---

(١) إشارة إلى بحثه التفسيري تحت هذا العنوان.

(٢) سورة الفتح، الآية: (٢٨).

دعوة الناس إليه بلحاظ الجو السائد في العالم المعاصر وبلحاظ ما تطرقنا إليه سريعاً في هذا البحث؟ وماذا نسمّي الإسلام على أنّه دين ماذا؟

على أنّه دين الحق والعدل والعمل الصالح.

إن الدعوة إلىٰ رسالة أو دين أو مذهب معين يجب أن تقترن في كل عصر بشعارات جديدة، ولا أرىٰ أننا ملزمون باختيار عنوان الدعوة وشعارها من بين العناوين التي استخدمت في مراحل سابقة، وجعلها العنوان العريض للنظام؛ إنّما ينبغي ملاحظة الزمان وتوجهات أهله، فنعرض العنوان والشعار الذي يستهوي القلوب، خاصّة إذا كان يتوفر عليه ديننا علىٰ أفضل وجه. إنّ ما تبحث عنه قلوب أهل الشرق والغرب اليوم أمران: الأول هو العدل. إذ أن الإنسان وفي كل مكان بات اليوم يعاني من الظلم والجور الذي يتعرّض له الإنسان. وبات الظلم مذموماً يبعث علىٰ الاستياء لدرجة أن بعض الحركات المعادية للظلم قد تلجأ إلىٰ القوة لردعه، وإذا لم تفعل ذلك فإن القلوب علىٰ الأقل كارهة للظلم مشمئزة منه، محبة للعدل راغبة إليه. فإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نرفع شعار العدالة وهو من صميم ديننا؟

الثاني: الهدفية، فقد باتت هذه المشكلة تواجه اليوم الكثير من المجتمعات المترفة التي فقدت معنىٰ الحياة، وأصبحت تعيش الفراغ واللاهدفية؛ والإنسان كما هو معروف متعطش إلىٰ الحق، وأن الفطرة الإنسانية محبة للحق في طبيعتها. ويُقصد به هنا المعنىٰ الثالث الذي أشرنا إليه، أي الهدفية والنتيجة والنهاية الواضحة، فيبحث الإنسان عن عملٍ يقوده إلىٰ هدفٍ معين ذو قيمة، ويتمحور الجهد الذي يبذله حول هذا الهدف المرجو.

حسناً، إذا كان الإسلام هو الدين الحق، وقد حدّد هدفاً لهذه

الحياة، ويعتبر أنّ خلق الإنسان سيكون عبثاً إذا لم يسعىٰ نحو تحقيق هدف الحياة. ولما كان الإسلام هو دين العدل، ويعتبر أنّ النظام الصحيح والحق هو النظام المتلائم مع الهدف من خلق العالم والإنسان. ويعدّ ما خلافها ظلماً وانحرافاً عن جادّة الحق، لذلك فإنّ من حقّنا أن نرفع هذا العنوان العريض ونعرض دعوتنا علىٰ العالم وهي تحمل شعار الحق والعدالة، لكن بشرط واحد هو أن لا يكون عملنا هذا مخالفاً لقولنا، فيسيء إلىٰ هذه الدعوة وإلىٰ الحق وإلىٰ العدل بسبب السلوك الصادر عنّا، فيقول الناس إذا كان هذا هو العدل والحق الذي تدعون إليه فلا شأن لنا بهما لأنّ الفطرة لا تبحث عن مثل هذا الحق والعدل اللذين لا يعدوان كونهما شعاران مزوّران.

إنني وبدلًا من أن أتوسّع في البحث كثيراً، أربطه بوضعنا وبأنفسنا، فمن الأمور التي تعطي الجاذبية والحيوية لحياتنا وعلاقاتنا العائلية والاجتماعية، وتغنينا عن التبليغ بالقلم واللسان هي ارتكاز هذه العلاقات علىٰ أساس الحق والعدل ـ وعلىٰ الأقل ـ في الدائرة التي تخضع لسلطتنا.

سؤال: هل نراعي نحن في أحاديثنا وحواراتنا ونقاشاتنا والآراء التي نتبادلها بأن نتّخذ من الحق والعدل محوراً بدل الذات؟ وهل نمتنع من أن نجعل ذواتنا وأفكارنا ميزاناً وحيداً للحق والباطل؟ وهل نحن على استعداد للانسلاخ من ذواتنا وأفكارنا فلا نجعلها المعيار الوحيد لذلك؟ وهل نحن علىٰ استعداد لقبول النقد المنصف الذي يوجّه لنا ولأفكارنا ولأقوالنا ولسلوكنا برحابة صدر؟ وهل ننصف الآخرين لو أردنا توجيه الانتقاد لأقوالهم وأفعالهم وأفكارهم؟ أم أن الهدف هو الانتقاد والانتقاد فقط؟

وقبل أن نطرح الشبهة أو النقد، هل قلّبنا الأمور ودرسنا الأفكار

بشكل منصف، ثم بادرنا إلى طرح ما اشتبه علينا؟ وهل اعتدنا علىٰ أن يستهدف انتقادنا الاستفهام لا النيل؟ هذا فيما يتعلق بذواتنا. وهل أننا مقتنعون بأنه ليس من حق الفرد أو الجماعة أن تدعو الآخرين إلىٰ منهج معين إذا لم تصل ـ علىٰ الأقل ـ إلىٰ هذا المستوىٰ؟

أعتقد أن هذا هو الحد الأدنىٰ للمسألة وليس الأعلىٰ، وأرىٰ أيضاً أن هذا الأمر هو في طليعة ما يتوقعه منّا كل من نريد أن ندعوه إلينا، فمن الواضح أنّه سينأىٰ بنفسه عنّا لو وجدنا منذ الوهلة الأولىٰ أناس متعصبون نجعل من ذواتنا محوراً للحق والباطل وميزاناً للعدل والظلم، ذلك أن هذا الأسلوب لن يؤدي إلىٰ نتيجة حتىٰ لو استخدم صاحبه كل الأجهزة الإعلامية المتوفرة في العالم وطبّق آخر الفنون الإعلامية، ووظّف أفضل الأقلام، وتوسّل بأجمل الشعر وأعذبه، وأرقىٰ الأفلام والمسرحيات.

طلب الحق، وتجنّب الحكم المسبق

في واحدة من الفترات التي مررت بها، وكان لي فيها نوع من الاحتكاك والمواجهة مع المسيحية والكنيسة، تنبهت إلىٰ ضرورة أن يحذر المرء من إصدار الأحكام المسبقة حتىٰ بشأن الجهاز الكنسي. وبهذا الصدد لن أنسىٰ ذلك الأستاذ المسيحي المتخصص في العلاقات بين الأديان الذي كان يدرّس المسيحية في جامعة هامبورغ، إذ كان جذّاباً ومنصفاً في سلوكه. فقد حضر يوماً مع مجموعة من طلّاب قسم الإلهيات الذين كانوا سينضمّون في المستقبل إلىٰ سلك رجال الدين المسيحيين، حضروا إلىٰ صلاة عيد الفطر للاطّلاع عن قرب علىٰ هذه الصلاة. وأعرب عن رغبته في الالتقاء بي لعشرة أو خمسة عشر دقيقة. ولمّا كان عليّ في مناسبات كعيد الفطر وعيد الأضحىٰ أن ألتقي الكثير من المسلمين، فقد وافقت علىٰ الطلب علىٰ أن ينتظر

إلىٰ ما بعد تبادل التهاني مع الإخوة المسلمين الحاضرين، فوافق على ذلك. ولدىٰ حصول الفرصة المناسبة قرب الظهيرة تحدثت معه قليلًا، فأبدىٰ رغبة في أن نلتقي لفترة أطول؛ وفعلًا فقد التقينا بحضور عدد من الأفراد في المكتبة، وأمضينا ساعة أو ساعتين أعربت له خلالها عن استعدادي للإجابة علىٰ أي استفسار عن الإسلام، فبادر أحد طلابه ـ وكان في السنة الدراسية الأخيرة ـ إلىٰ السؤال عن رأي القرآن في التثليث (وهو بحث انتقادي لا أريد أن أخوض فيه الآن) فطلبت منه أن نلتقي في موعد آخر وفي نفس المكان لكي نناقش في الآيات القرآنية حول تثليث المسيحية، فهي لا تتجاوز الثلاثة، فوافق على ذلك. وفي الموعد المقرر جمعت الآيات مع ترجمة القرآن الكريم بالألمانية، وناولته إيّاها ليقرأها، فتلاها بحضور الآخرين. فسألته عمّا فهمه منها بخصوص التثليث، وما إذا كان يُشم منها ما يُنسب إلىٰ القرآن من التثليث؟ فنفىٰ أن يكون قد فهم من الآيات الثلاثة هذا المعنىٰ، وسألته إن كان يعرف آية قرآنية أخرىٰ بهذا المفهوم، وأكدت له عدم وجودها، فسأل عندئذ عن أساس هذه الفكرة ومصدرها، فذكرت له أنّها نسبة غير صحيحة، الغرض منها الاستهانة بالقرآن الكريم، فاقتنع بالجواب وسرّ به.

في خاتمة هذا اللقاء ولمّا حان موعد الوداع، تحدث أستاذ المجموعة التي كان يدعوها إلىٰ المسيحية بكلام لا زلت أتذكره بعد مضيّ أكثر من سبع أو ثماني سنوات عليه، إذ قال: إننا نعرب لك عن الشكر لهذه الفرصة التي أتحتها لنا وهذا الحوار الذي جمع بيننا.. إنّه لم يكن مجرد لقاء، بل كان درساً لنا. ثم عقّب قائلًا: إنك أنقذتنا في هذا اللقاء من خطأٍ وقعنا فيه بسبب كتّابنا. هذا الموقف الإنساني المنصف الذي رأيته من هذا الأستاذ أمام طلّابه في قسم الإلهيات ذكّرني بالآية القرآنية: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾. هذا

النموذج من السلوك هو الذي يريده الإسلام لنا، ويطلب منا أن نتحلّىٰ به. ويفترض بنا كحد أدنىٰ أن نتصّف بمثل هذه الرؤية وهذا الإنصاف في مناقشاتنا وفي أحكامنا وفي مواقفنا، وليس ذلك بالحد الأسمىٰ فهذه أول بوابة للبستان الأخضر التي نريد للآخرين أن يدخلوه عبرها، وما في داخل البستان يجب أن يكون أكثر جمالاً ونضرة.

دعوتنا إلىٰ الإسلام الموجّهة إلىٰ شبابنا ونسائنا ورجالنا وللآخرين وإلىٰ العالم أجمع يجب أن تتخذ هذه الصورة، وأن تكون الدعوة إلى الإسلام دعوة إلىٰ الحق، بحيث إذا أزيلت كلمة الإسلام من أمامه فسيرىٰ المدعو أنّه الحق الذي دعوناه إليه، وإذا كانت الدعوة باللسان والقلم والفكر والعلم مزينة بهذا الوصف الجذّاب فإنّ مصيرها سيؤول ـ بلا شك وبكل ثقة ـ إلىٰ الفلاح والنجاح.

موضوع البحث القادم هو المحور الذي من أجله تمّ انتخاب هذا البحث، أي التصور الثالث للحق والباطل، وما بشّرَتْ به الآيات من انتصار الحق علىٰ الباطل وما يستبطنه من معنىٰ، حيث سنطرحه في المجلس القادم إن شاء الله، والحمد لله وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد وآل محمد.

أسئلة وأجوبة

❑ المهندس شكيب نيا: سؤالي الحالي يتناسب مع السؤال الذي طرحته في المجلس السابق، ويرتبط بمسألة الهدف، حيث سألنا في المرة السابقة عن الهدف من هذا العالم، وكنت قد أشرت إلىٰ أن الهدف قد يكون تأمين العدالة الاجتماعية، وهو ما تدعيه كل المذاهب والمشارب في العالم بأنّها تريد من خلال أنظمتها تأمين العدالة الاجتماعية علىٰ الوجه الأحسن. أمّا البحث الذي ناقش موضوع الهدف هنا فقد عاد إلىٰ الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1].

الهدف هنا أن يُعرَّض الإنسان إلىٰ الاختبار والابتلاء، أي أن الهدف هو الإنسان نفسه وعمله الصالح. ونقرأ في آية أخرىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2].

لكي نحصل علىٰ نتيجة علينا أن نعود إلىٰ نظرية العدالة الاجتماعية، فلو استمرّ البحث علىٰ هذا المنوال لحلّ شيء من مسألتي كحدّ أدنى، غير أن السيد بهشتي ارتقىٰ بالبحث إلىٰ مستويات عُليا، ممّا لم يروِ تعطشي. إننا نبحث عن الهدف، وقد سألت في المرّة الأولىٰ إن كان هدفنا هو الكمال فماذا يعني هذا الكمال؟ هنا تتبادر إلىٰ الذهن الشبهة التالية ويتوهّم أن لو كان الهدف هو الإنسان، وان الله تعالىٰ فعل ما فعل من أجل ابتلاء الإنسان وتمييز الصالح من الطالح، فهل كان عز وجل عاطلًا ليقول: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾؟ أي كان عرشه علىٰ الماء قبل أن يخلق الإنسان، فهل كان عاطلاً لا عمل له ليخلق آدم ثم يخلق الشيطان مقابله ليتفرج علىٰ الصراع الدائر بينهما؟

إنني لا أقصد الانتقاد مثلما تفضلت، بل هو توهّم شَغَلَ ذهني، وحبذا أجد الجواب الذي يشفي الغليل، لأنّ البحث حينما يرتقي الىٰ مستويات عليا تصبح عملية اقتناعي عسيرة، فيتبادر إلىٰ ذهني السؤال: ماذا عن الإنسان وعمله إذا كان الهدف: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ﴾؟ أَليس هذا أشبه باللعب، أن يخلق الله شيئاً ثم يجعله محلاً للابتلاء والاختبار ليعرف من بعد النتيجة؟ أرجو مناقشة هذه الشبهة التي

---

(١) سورة هود، الآية: (٧).

(٢) سورة الملك، الآية: (٢).

استقرت في ذهني، وتقديم التوضيحات اللازمة في ردّها. ولو طرحت هذه الشبهة خلال بحث العدالة الاجتماعية لما صدر منّي أي اعتراض، ولم تكن هناك ضرورة للارتقاء بنا إلى هذا المستوىٰ، أمّا وقد ارتقيت بي الآن فقد حصل هذا التوهم في ذهني، أنْ لماذا خلق الله ـ بعد أن كان يمتلك عرشاً وكان عرشه علىٰ الماء ـ الإنسان والشيطان للابتلاء؟

لنلاحظ أولًا ما إذا كانت هناك ملاحظات مماثلة من الحضور في تأييد الموضوع أو توضيحه أو ردّاً عليه، لنصل إلىٰ نتيجة مشتركة إزاء هذه المسألة عبر التلاقح الفكري.

- المرحوم المهندس مهدي بازركان: بسم الله الرحمن الرحيم. ما أريد أن أقوله يشمل ما تفضل به ولا يشمله؛ لا هو انتقاد ولا اعتراض، إنّما حاولت أن أتفرع وأُتمم. غاية الأمر ينتابني بعض التردد خشية أن أتدخل في موضوع المجلس القادم. لذا أرجو من السيد الدكتور بهشتي أن لا يضع ذلك في حساب المعارضة، وإذا كان كلامي عقبة في طريق محاضرته القادمة فليشير إليّ كي أتوقف عن الاسترسال وأدخل في موضوع آخر.

ثمّة ملاحظة قيلت هنا خلال الحوار كان لها وقع كبير عليّ. وقد ذكرتُ بعض الملاحظات في جلسة عائلية خاصة لاقت ترحيباً كبيراً، مما أثار استغرابي لأنني كنت أعتقد أنّها من البديهيات، كما أنني كنت قد ذكرتها في مرة سابقة، وما جرأتي الآن لطرح هذا الموضوع إلّا كنتيجة للتشجيع الذي لقيته هناك. وقد تمّت الإشارة هنا إلىٰ وجود موجة من العدمية تجتاح العالم تؤدي به إلىٰ الحيرة واليأس، فيما يحدو الشرق والغرب الأوروبي أمل مشترك كبير في أن يستقر العالم علىٰ ساحل العدالة، وإن الدنيا تبحث اليوم عن العدالة المطلقة اجتماعية وغير اجتماعية للتخلص والفرار والنجاة من الظلم الذي يتعرّض له

الإنسان الذي تُداس حقوقه. في المجلس الذي أشرت إليه جعلت من هذه الملاحظة أساساً للاستدلال علىٰ أن الظهور الموعود، أي ظهور الإمام المهدي (عجّل الله تعالىٰ فرجه الشريف) هو حق، لأنّنا حين نطالع الروايات الواردة حول الإمام المهدي (عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف) نلاحظ أن أكثرها يستند علىٰ هذه المسألة: «يملأ الأرض قسطاً وعدلًا كما مُلئت ظلماً وجوراً»[1].

---

(١) ورد هذا التعبير وأمثاله نقلاً عن الفريقين في الكثير من الروايات، نكتفي هنا بذكر ثلاثة منها. وليراجع من يرغب في مطالعة المزيد من الأخبار والأحاديث الواردة في الكتب المعتبرة أو الكتب المؤلفة خصيصاً لهذا الأمر ككتاب الغيبة للشيخ الطوسي.

أ ـ علي بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن خالد قال: حدّثني منذر بن محمد بن قابوس، عن منصور بن السندي، عن أبي داود المسترق، عن ثعلبة بن ميمون، عن مالك الجهني، عن الحارث بن المغيرة، عن الأصبغ بن نباتة، قال: أتيت أمير المؤمنين عليه السلام فوجدته متفكّراً ينكت في الأرض. فقلت: يا أمير المؤمنينما لي أراك متفكراً تنكت في الأرض، أرغبة منك فيها؟ فقال: «لا والله ما رغبت فيها ولا في الدنيا يوماً قطّ، ولكني فكّرت في مولود يكون من ظهري، الحادي عشر من ولدي، هو المهدي الذي يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، تكون له غيبة وحيرة، يضل فيها أقوام ويهتدي فيها آخرون». (أصول الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، ج١، ص٣٣٨ تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، بيروت، دار الأضواء، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

ب ـ ابن مسرور، عن ابن عامر، عن المعلّى، عن جعفر بن سليمان، عن عبد الله بن الحكم، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن خلفائي وأوصيائي وحجج الله علىٰ الخلق بعدي اثنا عشر: أولهم أخي وآخرهم ولدي». وقيل: يا رسول الله صلى الله عليه وآله ومَنْ أخوك؟ قال: «علي بن أبي طالب» قيل: فمَن ولدك؟ قال: «المهدي يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. والذي بعثني بالحق نبيّاً لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد لأطال الله ذلك اليوم حتىٰ يخرج فيه ولدي المهدي، فينزل روح الله عيسىٰ بن مريم عليه السلام فيصلّي خلفه، وتشرق الأرض بنور ربها، ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب». (بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٥١، بيروت، مؤسسة الوفاء ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

فقد قيل القليل أو لم يُذكر بتاتاً: أن الإمام المهدي (عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف) أي الإمام الثاني عشر ومن ذرية الحسين بن علي عليه السلام سيأتي ليقضي علىٰ الجهل وينشر العلم، رغم أن من أهداف الإسلام القضاء علىٰ الجاهلية، كما لم يذكر إلّا القليل القليل عن وعود بوفور النِعَم، وأيضاً لم أجد رواية تتحدّث عن أسلمة العالم كلّه، وإذا وجدت فهي نادرة جداً. غير أن الإشارة كانت موجهة دائماً إلىٰ العدالة. لماذا؟ لأنّ المسائل الأخرىٰ أمّا أن يكون الإنسان قد نالها، أو أنّه سيصلها في المستقبل، فقد بلغ مستوىً من العلم الذي بات يتطوّر باستمرار، ولا حاجة لأن يظهر الإمام الغائب ويلقي علىٰ البشرية دروساً في الفيزياء والكيمياء وعلم الاجتماع وأمثالها. وهكذا بالنسبة للانتاج واستثمار النعم لأنّ الإنسان عرف كيف يعمل علىٰ زيادة الانتاج حتىٰ استخرج من الماء الزبدة. إلّا أنّ ما تفتقر إليه البشرية يوماً بعد يوم وتبحث عنه منذ قرون وتتمناه هو العدالة، ذلك أن جميع الأنظمة التي حكمت البلدان حملت معها وعوداً بمكافحة الظلم والقضاء عليه، لكنها أخفقت في ذلك، فلم توفّر الحق والعدل إلّا لأقلية من الناس فيما بقيت الأكثرية تعاني من الحرمان. لذلك ترون أنّ العدالة هي ما تحتاجه الإنسانية حقاً، وقد أعطيت هذه الوعود.

ج ـ ابن المتوكل، عن الأسدي، عن البرمكي، عن علي بن عثمان، عن محمد بن الفرات، عن ثابت بن دينار، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «علي بن أبي طالب إمام أمتي وخليفتي عليهم بعدي، ومن ولده القائم المنتظر الذي يملأ الله عز وجل به الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً. والذي بعثني بالحق بشيراً إن الثابتين علىٰ القول في زمان غيبته لأعزّ من الكبريت الأحمر». فقام إليه جابر بن عبد الله الأنصاري، فقال: يا رسول الله وللقائم من ولدك غيبة؟ فقال: «أي وربي ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يا جابر إنّ هذا الأمر من أمر الله وسرّ من سرّ الله، مطوي عن عباده، فإيّاك والشك في أمر الله فهو كفر». (المصدر السابق).

ورغم ما طُرحت من شبهات حول عُمر الإمام في زمن لم تكن مثل هذه القضية علىٰ بساط البحث. ووردت هذه الرواية عن النبي ﷺ وعن الأئمة عليهم السلام كثيراً، دون أن تشير إلى آمال ذاتية ناجمة عن المعاناة التي كانوا يواجهونها، فلم يقولوا مثلًا أنّه سيأتي من ولدنا من يُمرّغ أنوف آل أُميّة، أو يقطع رقاب بني العبّاس، أو يجعل لذريتنا مكاناً عليّاً، أو علىٰ الأقل أنهم سيتولون الخلافة. ولما كانت هذه النداءات تمثل الوعود البشرية كان لا بد لها أن تنطلق من رغبات وعواطف ذاتية، لكنها ـ كما نرىٰ ـ ليست كذلك، بل تطرقت إلىٰ قضية لم يكن لها وجود حينذاك.

في بعض الأحيان تُطرح شبهات حول الإسلام، فيقال مثلًا: لماذا وافق الإسلام علىٰ العبودية، ولماذا سمح بكذا وكذا. إن الرغبات تتغير عادةً من مرحلة لأخرىٰ، ومع اعتذاري لكثرة الأمثلة التي تطيل الحديث، أقول روىٰ أخي الذي كان يسكن القرية مدة من الزمن رحمه الله أنّ إمرأة شكت إلى الاقطاعي الذي كان في السابق مرجعاً لجميع الشكاوي، شكت إليه يوماً زوجها طالبة الطلاق لأنه لم يعمد إلىٰ ضربها! لاحظوا ما يثار حالياً حول ما جاء في القرآن في عبارة ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ التي وردت بعد ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾(١) ثم جاء بعدها ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا. . .﴾ وكأنّ القرآن قد ارتكب ذنباً لا يغتفر. بالنسبة للعبودية فقد كانت مقبولة عند الناس قبل ألفي عام أو ألف وأربعمائة عام؛ ولا أقصد أن العبودية شيء حسن، إنّما أريد أن أنبّه إلى أن الرغبات والعواطف تتغير بتغير المراحل المختلفة. فلم تكن العدالة حينذاك رغبة البشرية، ولم تكن معاناة إنسان ذلك العصر هي الظلم، فقد رضي به بحق أو بغير حق. إن عبارة «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما

---

(١) سورة النساء، الآية: (٣٤).

ملئت ظلماً وجوراً» هي شعار آخر الزمان، وتنطبق تماماً علىٰ تكامل المجتمع البشري، ومثل هذا الوعد، الذي لم يكن له وجود يومذاك، بل لم تكن رغبة ملحّة حينها، يُعتبر دليلاً واضحاً علىٰ صدقه.

مضافاً لذلك فقد ورد أن انتظار فرج آل محمد ﷺ وانتظار القائم فيه عظيم الثواب، وهذه من قضايا العصر الكبرىٰ لمواجهة اليأس والقنوط الذي حَلّ بالبشرية وخاصة بالمسلمين، واليأس كما نعلم يقود إلىٰ العبثية، وهو يأتي بدوره من ازدياد الظلم وانعدام العدالة وخواء الشعارات التي تطلقها كل الأنظمة والمذاهب الفكرية، مما يسبب في انتشار هذا المرض البشري الدنيوي العالمي أي «اليأس» ليشكّل انتظار الفرج في آخر الزمان ـ باعتباره من أعظم الحسنات والثواب ـ حاجة بشرية ملحّة تمنع عنه اليأس رغم كل هذه الضغوط وكل أنواع البؤس والشقاء التي يعاني منها الإنسان، وذلك أن اليأس يجعل من الفرد يفقد كل شيء، وبالنتيجة فهو يُعدّ مسكِّناً لآلام البشرية وإخفاقاتها، لا سيما المسلمين منهم الذين يتعرضون لأشد أنواع الظلم والضغوط، ويمنح دفعة من الحيوية لكي يواصل الفرد حياته مع دفقٍ من الأمل والنشاط والعمل الاجتماعي.

لكن من أين يأتي هذا اليأس والبؤس والأسىٰ والخواء؟ السبب يكمن في خواء هذه المذاهب حقاً، وقد تطرقت إلىٰ هذا الأمر في هذه المجالس بعد محاضرة الدكتور بهشتي، ممّا دفع السيد كتيرائي أكثر من مرّة إلىٰ السؤال والاعتراض. لاحظوا، إن الفرق بين الإسلام وهذه المذاهب هو خواء شعارات هذه الأخيرة وغنىٰ شعار الإسلام. فهي تتحدث عن الإنسانية وعن العدالة وعن التكامل وعن الانتاج وعن الحياة وعن الاستقرار وعن الفن «الفن للفن» بيد أنها مجرد شعارات مرفوعة مقابل التوحيد ومقابل الدين والإسلام.

لماذا انتشرت ظاهرة الفلسفة الإنسانية[١] في عصرنا هذا؟ لأنّهم لا يريدون لله وللقرآن ذكر، فيقولون أن لا معنىٰ لهما لعدم وجود أساس لهما. ماذا تعني الإنسانية؟ لو أخذنا بالاعتبار البعد الطبيعي للمسألة باعتبار أن الإنسان موجود طبيعي (وقد تطرقت سابقاً إلىٰ هذه المسألة) فإن كون الفرد آكلًا أو مأكولًا يدخل في سياق القانون العام للطبيعة، فالمعنىٰ الطبيعي لأكثر الناس إنسانية هو أن يمارس الإنسان الاستغلال والضرب والقتل والسلب ليصل إلىٰ أعلىٰ مراحل الحيوانية حيث شعاره: إضرب، أقتل، كل، خذ، وتحكّم بالجميع. أمّا الشرف والأخلاق وأمثالها فهي تحتاج إلىٰ ما تستند عليه، وسبق أن قلت مرة أن الأخلاق الحسنة والسيئة تختلف باختلاف الهدف، كأن يأتي ماركس ويقول أن العمل هو الذي يصنع الإنسان وهو الأساس، في كلام خاوٍ تماماً؛ أمّا القرآن فكله يدعو إلىٰ العمل الصالح والعمل الأحسن، لا العمل المجرّد، ومثل هذا العمل الصالح والهدف والحق يجد معناه لأنّه ينتهي إلى الله ويستند إليه، فيمكن أن نعلنها للإنسانية أن عبارة «إليه راجعون» هي التي تجعلنا في إطار ذلك النظام وذلك السلوك وتلك الأخلاق التي تقربنا من الله؛ إنّها الأخلاق الإلهية والكرامة التي ترضي الله. فالعمل لوحده يصنع ضحّاكاً[٢]، ويستطيع أن يصنع أولئك أيضاً. إن ما يقوله الإسلام وما لا يقولونه تستبطنه عبارة: لا إله إلّا الله التي تدعو إلىٰ طرد كل الآلهة وحتىٰ الإنسانية والكرامة والضمير والأخلاق والعمل والإنتاج والاقتصاد والرفاه وما إلىٰ ذلك لأنّها شرك كلها تقف موقف المنافس له إذا اعتبرت بحدّ ذاتها هدفاً منفصلًا عنه.

---

(١) Humanism

(٢) شخصية أسطورية إيرانية اشتهرت بالظلم والقسوة (المترجم).

يبحث المهندس شكيب نيا عن الهدف، وهو ليس العدالة الاجتماعية في المنطق القرآني. كما أنّه ليس الإنسانية، إنّما هو الله الذي يجب أن يصل إليه الإنسان بأفعاله وأقواله، واستناداً علىٰ هذا فإن معيار الحق والباطل هو ما ينطبق علىٰ هذا الهدف وهو الله.

بناءً علىٰ ما مرّ فإنّ هناك ثلاثة معانٍ للحق القرآني، فهو الواقع، لأنّ الله واقع، وخلق السماوات والأرض واقع، وليس تصوراً ووهماً؛ وهو أيضاً الإنطباق مع الواقع الحقيقي وليس الخيالي؛ وهو من ثم الانطباق مع ما تمّ الاتفاق عليه، بمعنىٰ أنّ الحق في المنطق القرآني وحسب ما نفهمه من الآيات هو ما اتفق مع نظامنا ودستورنا وشريعتنا ورغبتنا ورأينا.

من ناحية أُخرىٰ فإنّ الحق المطلق والأساسي يتوفر في الأديان التوحيدية فقط دون المذاهب الأُخرىٰ، لأنّ النسبية هي السائدة في هذه المذاهب، وليس لديها ما هو مطلق، فالحق عند الانغلو ـ ساكسون هو ما ينتهي بعظمة الامبراطورية البريطانية، والحق لدىٰ الروس هو ما يوصل ـ على سبيل المثال ـ إلىٰ الشيوعية والحياة الاشتراكية أو إلىٰ ديكتاتورية البروليتاريا، أي أن حقهم ينطبق مع ما اتفقوا عليه، غير أن الحق في الإسلام ينطبق علىٰ ما له واقع إلهي بوصفه يمثّل أعلىٰ مراتب الحقيقة والواقع، وكذلك علىٰ ما له واقع طبيعي وواقع في الشريعة وينتهي إلىٰ الله أيضاً، مما يمهد السبيل التي نسلكها للوصول إليه تعالىٰ.

ـ شكراً للسيد المهندس علىٰ هذه الكلمة، ولديّ ملاحظة واحدة علىٰ ما جاء فيها سأتطرق إليها إن شاء الله فيما بعد، تدور حول ما تفضّل به عن العدل وأنّه لم يكن شعاراً عاماً في المراحل السابقة يستقطب اهتمام الناس، إذ أنني لا أوافق علىٰ هذا الرأي علىٰ ما

سنبحثه في المجلس المقبل، وننتفع من الآراء والتوضيحات التي تطرح فيه؛ وأعتقد أن الإنسان في جميع المراحل الحياتية كان يطمح إلىٰ العدل كمبدأ مع الفرق في المصاديق فقط، وهذا ما سنتركه للمجلس المقبل ونستأنف الحديث من المقطع الأخير للكلام فيما يرتبط بسؤال المهندس شكيب نيا.

السيد المهندس والأصدقاء الأعزاء أرجو الانتباه جيداً إلىٰ أن الحياة تجد معناها مع الحب الخالص، وبدونه تصبح الحياة ساكنة لا روح فيها، وبه تُضاء جوانب الحياة ويدبّ الدفء فيها. إنّ الحق الذي يتطلع إليه الإنسان في عصرنا الحاضر لا ينطلق من منفعة، بل من رغبة وحب. ويصنف الجهاد في سبيل الحق إلىٰ نوعين: فقد يتعرض المرء إلىٰ الظلم من ظالم يسلبه أحد حقوقه فيثأر لنفسه ويأخذ حقّه ممن ظَلَمه، ويدخل من أجل ذلك في صراعٍ مفيد هو بالتأكيد أفضل وأسمىٰ من الخضوع وتحمّل الظلم، غير أن هذا النمط من الصراع لا يدخل في نطاق الحب. وتارة يسلب «أ» من «ب» حقّه ثم ينتفض «ج» ليعيد الحق إلىٰ أهله انطلاقاً من دافع حب الآخر والعاطفة البشرية، وهذه تصب في النّزعة الإنسانية التي تتجلىٰ أسمىٰ معانيها في حب الآخرين. ويعتبر أغوست كونت[1] كان من أوائل من نادىٰ بالفلسفة الإنسانية في المدارس الحقوقية والاجتماعية الجديدة (ليس الأول في الغرب ولا في العصر الحديث) وأول من أدخلها إلىٰ علم الاجتماع، وعرض النزعة الإنسانية وحب الآخر بهذه الصيغة الاجتماعية، وبلورها بهذه الصورة، وينتهي فكره إلىٰ أن الإنسان كان في الأساس يعبد الإنسان، ثم وجّه حبه إلىٰ الرمز السماوي الذي يستحق العبادة وصنع منه تمثالاً. هذا هو

---

(١) August Conte عالم اجتماع فرنسي شهير (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) من مؤسسي علم الاجتماع الحديث والفلسفة الوضعية positivism.

الدين الذي يدعو إلىٰ عبادة الإنسان في المذاهب الإنسانية، أمّا في الأديان الإلهية فإنّ المسألة تفوق هذا الحد، وترتقي إلىٰ الله. ومن الغريب أن البعض كتب مؤخراً يقول إنّ إلٰه القرآن دكتاتوراً! في حين ان إلٰه القرآن محبوباً وليس دكتاتوراً:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾[1].

يوجد من بين الناس من يختار آخرين غير الله لمحبتهم، أمّا المؤمنون بالله العارفون به فيحبون الله أعلىٰ درجات الحب، وقد ذكرت مرة في شهر رمضان بأن معرفة الله هي من المواضيع المهمة التي يجب التركيز عليها لكونها نقطة أساسية؛ هذه المعرفة التي يصفها لنا القرآن عن الله ويرشدنا إليها تجعل منه تعالىٰ ربّاً محبوباً، وحبّه ليس بحاجة إلىٰ ما يمهد له من عوامل، بل تكفي طبيعة الإنسان وفطرته السلمية للتوجّه إلىٰ الله، أي حبّه.

أمّا عن معنىٰ الهدف، فهو هنا ليس عرفياً أو شيء يمكن الاتفاق حوله أو الإعلان عنه، إنّما هو هدف فطري، حيث يطمح الإسلام إلى بناء الإنسان المحب لله والذي يفعل ما يقرّبه إلىٰ الله، وإذا ما وصل إلىٰ هذه المرحلة أي إلى مرحلة العمل قربة إلى الله، عندها يصبح مصداقاً لـ «الأحسن عملًا» بنفس القدر الذي يتقرّب فيه، وعلىٰ هذا الأساس يقاس العمل الصالح والعمل الأحسن، ليبلغ الإنسان ذروة العبودية. فالهدف هنا ليس الإنسان نفسه، بل هدف الإنسان هو الله لأنّه يأتي ويعود إليه. إنّها حركة لها بداية ونهاية، لكنها ليست نهاية الوصول إليه، بل التوجّه نحوه، وثمّة فرق بين

(١) سورة البقرة، الآية: (١٦٥).

الاثنين، ذلك أن مسألة الوصول إلى الله تعد من المسائل المعقدة في العرفان، وما يوقع في الخطأ أن يفسَّر معنىٰ الوصول بالتوقف عن الحركة، وإذا وصل المرء إلى الهدف فإنّه لن يتحرّك بعدها، وهي صفة لا أعرفها حتى الآن عن الإسلام، إنّما نعلم بدوام الحركة إلىٰ الله. إذن الحب هو الذي يضفي الدفء إلىٰ حياة الإنسان ـ الذي يؤمن بالعقيدة الإسلامية ويتحلىٰ بالمعرفة الإسلامية ـ وينير الدرب أمامه، وهو من نوع الحب الدائم الذي لا نهاية له، والذي يضخ الحياة بالحيوية ويمنحها المعنىٰ.

نعود إلىٰ السؤال الذي طرحته وهو: ما هو الهدف؟ فأقول: إذا كان سؤالك عن هدف الحبّ والحركة، فإنّ الهدف هو الله. وعندئذ علينا أن نتمم الطريق إلىٰ معرفة الله. أمّا لو كان السؤال عن هدف الفعل الذي نقوم به، فأقول: إنّ هدف الأعمال التي ننفذّها هو القربة إلى الله تعالىٰ وهو الحياة الإنسانية المليئة بالحب. ونسأل: ما هو الهدف من هذا البيت؟ الجواب: للسكن. ثم يرد السؤال التالي: ولماذا السكن في هذا البيت؟ في موضوعنا الذي كنا نتحدث عنه نقول: إنّ الهدف من القيام بالعمل الصالح هو العيش في أجواء الحب، لأنّ العمل غير الصالح لا تربطه بالحب رابطة. وأشرتُ أيضاً إلىٰ أن هذا العمل يصبّ في مسير رضا الله، وفي اتجاه «رضوان من الله أكبر» فيما يُعد ذروة التربية الإسلامية؛ وفي هذا الموقف بالذات تتجلىٰ نقطة ضعفنا، لأنّنا نقول باللسان قربة إلىٰ الله، ثم نعمل لأنفسنا. وهو ما يجب أن نحاسبها عليه «حاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحَاسَبوا» لنعرف أي من أعمالنا ينفّذ بقصد القربة إلى الله حقاً.

توضيح آخر أود طرحه الآن سبق، وأن أشرت إليه في بحوث سابقة تناولناها في هذا المجلس وهو أن الجهاد لإقامة العدل الاقتصادي

هو قربة إلى الله تعالىٰ، شريطة أن لا يتحول العدل الاقتصادي بذاته إلى صنم، ولا ينظر إليه كهدفٍ نهائي. ففي الوقت الذي أسعىٰ حثيثاً لإيجاد العدالة الاقتصادية، يجب أن أنتبه إلىٰ أن هذه العدالة ليست علاجاً لكل آلام البشرية، ويعني الانتباه إلىٰ هذه النقطة بأنّ السعي لتحقيق العدالة يجري في إطار خدمة البشرية وصلاحها، لكن الصلاح الحقيقي يكمن في أمور أخرىٰ غير هذه.

إننا نعلم أن حبّ الولد، وحبّ الزوجة للزوج، وحبّ الأرحام، والإنفاق، كلّها بذاتها تعدّ قربة إلىٰ الله تعالىٰ، وهو عكس ما يتصوّره البعض من أن المسلم ذو طباع قاسية لا يفهم معنىٰ للحب تجاه الأولاد في قلبه. ومن الانحراف والوهم أيضاً أن يقول المرء إنّني أحبّ ولدي من أجل الله فقط، وإلّا فإنني لا أحبّ أولادي! ذلك أنّ الإلٰه الذي نتحدث عنه ليس بهذه الصورة. ولا يتقاطع حبّه مع حبّ الولد، كلا.. فالمحبّة المتزنة للولد هي بذاتها تجلٍّ للحبّ الإلهي، وان الحبّ السليم من الزوج لزوجته وبالعكس يرقىٰ بالإنسان، ويمثل قربة إلىٰ الله وحبّاً له، ويدخل في عداد هذه القربة أيضاً محبة الأرحام ومحبة الإنسان لأخيه الإنسان، ومحبة المظلوم والتعاطف معه، لأنّ المسلم يتحسس آلام المظلومين ومعاناتهم، وفي هذا التحسس دليل علىٰ الإيمان.

ومن الخطأ أن يقول المرء إنّه لا يشعر بمعاناة المظلومين، وأنّه يتألّم لها لأنّ الله ذمّ الظلم؛ لهذا نرىٰ في ترجمة أحوال ثاني شخصية نموذجية في الإسلام بعد الرسول الأكرم ﷺ أي الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه كان في ميدان الوغىٰ لا يأبه بقتل المئات، ويؤلمه بل ويذرف الدمع إذا سُرق من قدم عجوز أو أذن يتيمة شيء، أو إذا اعتدي علىٰ نصراني يعيش في كنف الإسلام، وتجرح مشاعره لذلك حقاً ويبكي، وهذا لا يعني أن أحاسيسه لا تجرح وأنه يتألّم من أجل

الله فقط، فلا فصل هنا بين الله وبين الإنسانية، ذلك أن وجود هذا الإحساس تجاه الآخرين يعني فيما يعنيه وجود تربية إلهية شريطة أن لا تتحوّل هذه الأمور إلىٰ صنمية.

والتعادل هنا يعني أن يحب المرء ولده، وهو واجب عليه، لكن ينبغي أن لا يجعل منه صنماً، ومتىٰ يصبح حبّ الولد صنماً؟ عندما يحرّضه هذا الحبّ علىٰ سرقة أموال الآخرين من أجل تأمين وسائل الترف لولده، أو أن ينسيه عن ذكر الحق بمعناه السامي ويجعله غافلاً عن الصلاة الحقيقية (لا هذه الصلاة الروتينية التي لا روح فيها) عندها يكون الولد صنماً. وتصبح الزوجة صنماً حينما يدفع حبها زوجها إلىٰ نسيان أداء حقوق الآخرين لتأمين ما تحتاجه إرضاءً لرغبتها، وكذلك يصبح الزوج صنماً حينما تتخلّف الزوجة عن أداء واجباتها من أجل أن توفّر لزوجها أسباب الراحة والاستقرار. وعليه فمن الطبيعي أن يحبّ المرء أولاده وأباه وأمّه وزوجه وذويه وأصحابه (وهل يمكن للفرد أن ينكر حبه لأصدقائه بدعوىٰ أنّه أصبح أممياً يحب الوطن والعالم، فلا ريب في أن الإنسان يأنس بأصحابه ورفاقه المقربين منه ويحبهم أكثر من غيرهم) ولهذا فإن صلة الأرحام والأصدقاء كلها هي في عداد الأعمال التي تقرّب إلى الله تعالىٰ.

أرجو أن يكون التوضيح وافياً لما سأله الدكتور، رغم أنه يستلزم بحثاً واسعاً، وقد خرجنا بنتيجة مفادها أن حياة الإنسان حينما تعمر بالحب تخرج من خوائها وفراغها، وهذا ينسحب علىٰ الحب المادي أيضاً، حيث نرىٰ أن من يحب فنّاً معيناً كالرسم مثلاً؛ فإنّه لا يشعر بالخواء ما دام يحمل هذا الحب معه. إن خطر العدمية الذي يهدد الحياة المعاصرة جاء بسبب خلو الحياة من الحب، إذ عمدت هذه الظاهرة إلىٰ سلب الفرد من كل ما يحب، من الدين والكنيسة والمعبد

والأب والأم والولد والعاطفة والزوج والزوجة وكل شيء، بل قالوا: إنّ الزواج لا يعدو كونه إشباعاً للغرائز الجنسية! في حين أنّ الزواج الذي لا يقوم علىٰ أساس الحبّ ليس شيئاً ذي بال، والحياة بلا حب تصبح عدماً وخواءً، ودواء هذه الظاهرة هو الحب، وعلاجها هو إشاعة الحب في الحياة، وأسمىٰ الحب هو حبّ الله شريطة أن نعمد إلى إصلاح معرفتنا بالله، لأنّ معرفتنا ـ وللأسف ـ ناقصة، فلو استطعنا أن نحب الله بعد معرفته فإننا نكون قد عثرنا علىٰ الرمز الرئيسي لهذا البحث.

□ الرجاء توضيح المزيد حول التعادل.

ـ التعادل هو كما قلت أن لا نجعل من الآخر صنماً، أن نحب الولد ولكن دون أي صنمية، وسبق أن قلت في هذا المجلس أن الحب للولد يجب أن يكون متعادلًا، فلا يفرط في حبه بحيث يغفل عن تربيته ويجعل منه مدللًا، عندها يكون حبّ الإنسان لابنه غير متعادل وعلىٰ الأب أن يعلم أنّ ابنه سيكون في يوم ما فرداً نافعاً في المجتمع، لا أن يكون كَلّاً عليه.

□ المهندس شكيب نيا: توضيحاً لما قاله السيد بازركان أقول إنّ البعض يتصوّر وجود نقاط ضعف في الإسلام فيما يخصّ موضوع العبيد أو معاقبة السارق، في حين أنّها تُعدّ نقاط قوة في وقت كان اتخاذ العبيد سائداً في المجتمع، فقد كافح الإسلام هذا النوع من العبودية بأفضل صورة، فجعل كفارة الذنب عتق رقبة، أي أنّه وضع قانوناً مرناً يلغي العبودية في غضون خمسين عاماً. وفي موضوع قطع يد السارق سألني أحد الأصدقاء مرّة ما إذا كان وارداً في العصر الحاضر أن تقطع يد السارق في نيويورك خاصة، وأنّ هذا النوع من العقاب قد أكل عليه الزمن! فأجبته نعم، لو قطعت

يد واحدة سنوياً في نيويورك أو واشنطن لتمّ إنقاذ آلاف الأشخاص من القتل، ولما سُرقت مليارات الدولارات. لا ضير في أن تقطع هذه اليد ثم يُصار إلىٰ الاهتمام به شأنه شأن الآلاف من المعاقين (رغم أنّه ليس منهم) لإحياء المجتمع ومنع السرقة فيه، إضافة إلىٰ الاف المنافع الأُخرىٰ التي ستعود علىٰ هذا المجتمع جراء ذلك، أجل، هذا العقاب يمكن تنفيذه ولا ينسخ في أي مرحلة زمنية.

المسألة الأخرى التي تم الحديث عنها هي خواء الحياة وعبثيتها. فلماذا يتصوّر المرء أن حياته خاوية؟ هذا الفراغ الذي يشعر به الماديون متأتٍ من النتيجة التي تعود عليهم بعد لهاثٍ طويل، فهي لا تتعدىٰ حياة مادية آلية وعدالة جوفاء، يحصلون على السيارة والطائرة وعلىٰ كل شيء إلاّ السعادة، لقد فقدوا السعادة. وهذه نتيجة غير مجدية للسعي والجهد الذي يبذل. ويؤكد القرآن بدوره تفاهة هذا النوع من الحياة ويقول: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ ثم يستثني ويقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[1]. إذ إننا ننتقل من هذا الخسران والفراغ باتجاه حياة الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

أمّا السؤال الآخر: تفضل الدكتور بهشتي بالقول إنّ العمل قد ورد في القرآن الكريم دوماً بعد جملة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهناك بعض الأصدقاء ممن لا يقرأون بأن الحياة لا يمكن أن تدار بالصلاة والإيمان يشكلون على ذلك، فأجيبهم أن الأيمان يجب أن يتلوه العمل الصالح حيث جاءت بعد كل كلمة ﴿ءَامَنُوا۟ ا﴾ في القرآن

---

(١) سورة العصر.

الكريم عبارة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فالعمل الصحيح هو ما يأتي بعد الإيمان. وحينما يقول الإمام الحسين عليه السلام: «إنّ الحياة عقيدة وجهاد»[1] إنّما يريد أن يبيّن أنّ الحياة بالنسبة إليه لا قيمة لها، وأنّه مستعد للتضحية بها من أجل العقيدة، فإذا كان الهدف سامياً هانت دونه الأمور، وقد ضحّىٰ الإمام الحسين عليه السلام بحياته وكل ما لديه من أجل هدف سامٍ، وكانت الحياة بالنسبة إليه لا قيمة لها في مقابل الهدف، هدف الإنسانية، هدف الدين، وهدف سعادة البشرية في الدنيا والآخرة.

الإشارة الأخرىٰ التي أود أن أعقّب فيها علىٰ كلام الدكتور بهشتي حول العمل والوظيفة هي أنني توصلت إلى نتيجة مؤدّاها هي أن وظائف الإنسان الفيزيائية والفسيولوجية والعاطفية إنّما تنبىء عن كمال لطف الله ورحمانيته ورحيميته التي تدفعنا للقيام بهذه الوظيفة بالنحو الأحسن، فتناول الطعام بالنسبة لنا هو وظيفة لأنّ فيه إدامة الحياة. وقد تلطف الله تعالىٰ بنا وجعل في القيام بهذه الوظيفة لذة. كما جعل الله تعالىٰ الاهتمام بالمحرومين والمظلومين لذة، ولولاها لما أقدم أي امرءٍ في الأخذ بيد طفل تائه ـ على سبيل المثال ـ لا يتجاوز الثالثة من العمر، لكن بوجودها يندفع كل منّا إلىٰ منح هذا الطفل الاهتمام والحنان وإيصاله إلىٰ أهله، فهي لذة، وهو عمل صالح في نفس الوقت، وكما قال الشاعر:

من له القدرة على أن يشكر الله حقّ شكره بيده ولسانه؟

إن هذا الإيمان الذي منحنا الله إيّاه وهذا النور الذي أضاءه في قلوبنا يستوجب قبل كل شيء شكراً، وعلينا أن نكون دائماً من

---

(١) هذا الكلام منسوب إلى الإمام الحسين عليه السلام وهو غير موجود في كتب الحديث المعتبرة.

الشاكرين لكي يزيد الله في إيماننا وفهمنا وسعادتنا طبقاً لقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

ـ أوجّه كلامي إلىٰ المهندس شكيب نيا، وأسأله ما إذا كان التوضيح قد أفاده، لأنّها كانت مسألة أساسية، وسبق أن قلت أنّها تحتاج إلىٰ بحث مستقل. وقد وددت أن تكون وبقية الأصدقاء في القمّة، ففي العدالة الاجتماعية رضا الله إضافة إلىٰ أنّها مصداق للعمل الذي يقرّب إليه تعالىٰ، لكنها ليست هدفاً ولا نهاية المطاف. سأكون في غاية السرور إن اتضح المطلوب.

❑ المهندس شكيب نيا: كان هدفي من السؤال هو إلقاء المزيد من الضوء علىٰ البحث، وبدوري سأتلو ثلاثة أبيات من الشعر في مجال الحب الذي تفضّلت بذكره؛ وقبل ذلك أشير إلى ما جاء في دعاء السَحَر من حثّ الإنسان علىٰ اختيار أعظم معبود: «**اللّهمّ إنّي أسألك من جمالك بأجمله، وكل جمالك جميل، اللهم اني أسألك بجمالك كله**».

يقال إن الملائكة لمّا رأت النار وقد أُعدت لإلقاء إبراهيم فيها سَأَلَتْ الله سبحانه وتعالىٰ عن السبب في سماحه بحرق هذا العبد الصالح، فدعاها للرجوع إليه وسؤاله، فذهبت إليه وعرضت عليه المساعدة فجاء الجواب كما وصفه الشاعر صفي علي شاه ما تَرْجَمَته:

أنا عبد قد استسلمت له	من يستحق النطق في حكمه
لِمَ هم لِمَ غم فالعالم نار	لذة لو كان الطلب منه فيها الاندثار
ليت روحي مستمرة وكذا النار	كي تحترق فيها إلىٰ يوم النشور

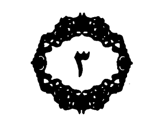
ذكرت هذا لكي أبرهن علىٰ أنني استوعبت البحث تماماً.

ـ وفي هذا الصدد يقول أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل: «**فهبني صبرت علىٰ حرّ نارك، فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك**».

في الأدعية المأثورة مضامين عالية مماثلة كالفقرة التي تقول: **«كيف أصبر علىٰ فراقك»**[1] وكلّي أمل في أن يتحلىٰ الأخوة بهذه الرابطة عبر العلاقات الاجتماعية، مع الاحتفاظ بجميع الروابط التي يدعو إليها الإسلام.

---

(١) دعاء كميل.



الحق والباطل

دعوة الأنبياء هي دعوة إلىٰ الحق والعدل

توصلنا في البحوث السابقة إلىٰ أن الإسلام هو دين الحق والعدل، ولمّا كانت دعوة جميع الأنبياء إلىٰ هذا الدين الحنيف (إبراهيم وإسماعيل وموسىٰ وعيسىٰ وخاتمهم النبي محمد ﷺ كلهم مسلمون وكلهم دَعَوا إلى الإسلام). فإنّها في الحقيقة دعوة إلىٰ الحق والعدل:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1].

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2].

هذه الآية من الآيات الغامضة في القرآن في مجال الإنسان وعلم

---

(١) سورة الحديد، الآية: (٢٥).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢١٣).

الإنسان؛ عن قوم من مجتمع واحد ورأي وأسلوب واحد. وإذا وضعناها إلىٰ جانب الآية السابقة من سورة الحديد يتضح لنا أن دعوة الأنبياء هي دعوة إلى الحق والعدل.

بشرى انتصار الحق والعدل في القرآن:

تتطرق الكثير من الآيات القرآنية ـ إضافة للموضوع الآنف ـ إلىٰ أمر آخر هو أن الله بعث الأنبياء للدعوة إلىٰ الحق والعدل لكي ينصر الحق والعدل، وفيها نوع من الوعد بالنصر. وتعود هذه الآيات إلىٰ مرحلة الفترات المتأخرة من عصر النهضة الإسلامية، وقد نزلت الآيات المبشرة بنصر الحق والعدل ودين الله بالترتيب منذ السنوات الأولى للبعثة في مكّة حتىٰ السنة التاسعة للهجرة تقريباً في المدينة حينما نزلت آخر آية بهذا الشأن حسب ما تتبعت ذلك. وفيما يلي طائفة من هذه الآيات حسب الترتيب الزمني، مع الإشارة إلى المرحلة التي نزلت فيها، فقد جاء في سورة سبأ:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[1].

هذه الآيات مكية، ويبدو من سياقها انها نزلت في حدود السنة الثالثة إلى الخامسة للبعثة..

إنّ فعل «يقذف» الذي جاء في الآية وفي غيرها كقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ وفي تعابير مماثلة أُخرىٰ استخدمت لنفس الغرض، يلقي في ذهن السامع صورة الحق كسلاح فتاك يقذف به الله جيش الباطل ليقضي عليه.

---

(١) سورة سبأ، الآية: (٤٨ و٤٩).

وثمّة آيات مكية أخرىٰ من سورة الأنبياء تتضمن هذا الموضوع. وإذا أردنا أن نستوضح نطاق استخدامها ونتبين أرضيتها، فمن المناسب أن نعود إلىٰ نحو ثماني آيات قبلها، لكننا نتجاوز ذكرها الآن رعاية للاختصار وليتسنىٰ لنا إيصال البحث إلىٰ النتيجة النهائية فنقرأ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[1].

هذه الآيات مكية، وتعود أيضاً إلىٰ السنوات التي ذكرتها، وتبين الآية ما يتصوره البعض ـ كما أسلفنا ـ بأنّ الخلق والوجود والطبيعة وجدت كلها بلا هدف. فمتىٰ يكون الخلق والعالم دون هدف؟ حينما تكون حياة الإنسان دون هدف. ومتى تفقد حياة الإنسان هدفها؟ حينما يخلو هدفه من الحب والعبادة، ذلك أن الإنسان يحتاج إلىٰ الحب، والشيء الوحيد الذي يستحق أن يتألق في قمّة هذا الحب هو الحق والعدل، وما يخرج حياة الإنسان من عبثيتها وينتشلها من فراغها هو حب الحق والعدالة، وما لم تُنقذ حياة الإنسان من حالة الخواء فإنّ هذا الخواء سينسحب علىٰ الوجود كله، أي إذا كان الإنسان خاوياً، وإذا لم يجد الحب للحق طريقاً له في هذا العالم، ولم يتجه الإنسان والوجود والعالم كلّه نحو الحق لأصبحت الحياة والخلق والوجود لغو ولهو ولعب؛ وهو تعالىٰ لم يخلق السماء والأرض وما بينهما للعب واللهو، ولو أراد ذلك لاتخذه من لدنه ولا حاجة لأن يخلق كل هذا الخلق. فما الأمر إذن، وما هذا الخلق؟ إنّه خَلْقٌ له جهة وهدف ألا وهو الحق. ولكن لماذا كل هذا الصراع

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: (١٦ و١٧ و١٨).

والنزاع والباطل؟ ليقذف الله بالحق علىٰ الباطل فيدفعه فإذا هو زاهق إذن فاعلموا بوجود عالم آخر، وبوجود خالق لهذا العالم وذاك، ولا تظنوا أنّ الأمر عبث.

الآية نزلت ـ كما قلنا ـ في المرحلة المكية، وهذه الإشارة إلىٰ مراحل النزول هي لمعرفة الفترة الزمنية التي بشر بها القرآن والنبيّ بانتصار الحق وزهوق الباطل. ومن الآيات المكية الأخرىٰ:

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1].

الآية من سورة الإسراء نزلت تقريباً بين السنة السابعة والثامنة للبعثة.

أمّا ما نزل بهذا الصدد في المرحلة المدنية في مراحلها المختلفة، فنبدأ بسورة الشورىٰ التي هي في الأصل مكية، ولكن ألحقت بها آيات مدنية ومنها الآية التالية:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[2].

ثم نصل إلى حدود عام غزوة بدر، أي في السنة الهجرية الثانية. الآية الأخرىٰ مستلّة من سورة الأنفال التي نزلت في السّنة الثانية للهجرة، حيث تبدأ السورة ببيان حكم الأنفال (غنائم الحرب) ونزلت في وقت تنعطف قلوب المقاتلين وأفكارهم نحو الدنيا وحب الثروة والمال فيما كانوا يخوضون معركة في سبيل الله، وهل يستطيع المرء أن يتخلّىٰ بسهولة عن الثروة والقدرة؟ فتبين حكم الأنفال:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: (٨١).

(٢) سورة الشورىٰ، الآية: (٢٤).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

ولكن مَنْ هم المؤمنين؟

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[2].

بعدها يتحدّث القرآن عن هجرة النبي ﷺ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾[3].

ثم يأتي علىٰ معركة بدر، ويبدأ بسرد تفاصيلها:

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ * لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[4].

الآية تتحدث عن معركة بدر أثنائها أو في نهايتها ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ وذلك في السنة الثانية للهجرة.

أمّا الآيات التالية فهي حول معركة أُحد، ونزلت في حدود السنة الثالثة للهجرة:

---

(١) سورة الأنفال، الآية: (١).

(٢) سورة الأنفال، الآية: (٢ـ٤).

(٣) سورة الأنفال، الآية: (٥).

(٤) سورة الأنفال، الآية: (٦ ـ ٨).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾(1).

ونصل إلى السنة السادسة للهجرة وتحديداً في أحداث صلح الحديبية حيث نزلت سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ والسورة كلها حول هذا الصلح، وحتىٰ الفتح المبين الذي جاء ذكره فيها رغم أن الكثير اعتقد أن هذا النصر هو فتح مكة، وقد أشار إلىٰ هذا المفسّرون والمتقدمون، لأنّ الشك راود الناس في عصر التابعين حول ما إذا كانت السورة عن فتح مكة أم لا، وأكّد المفسّرون حينها مراراً بأنّها قصدت فتح الحديبية لا مكّة، حيث تصوّر عدد من المسلمين أنّ ما جرىٰ في صلح الحديبية كان هزيمة للمسلمين فيما عدّها آخرون نصراً، ونزلت هذه الآيات لتؤكد أنّ ما حدث كان نصراً للمسلمين، ثم تلت هذه البشرىٰ بالقول:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾(2).

وفي السنة الثامنة أو التاسعة للهجرة وفي سورة براءة التي أعلن فيها منع مشركي مكة من المشاركة في موسم حج للسنة المقبلة، يقول تعالىٰ:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(3).

---

(1) سورة محمد، الآية: (٢ و٣).

(2) سورة الفتح، الآية: (٢٨).

(3) سورة الصف، الآية: (٨ و٩).

تلاحظون أن الكلام يدور طوال هذه المدّة وفي الآيات المذكورة عن انتصار الحق علىٰ الباطل، فيما يتحدث في الآية الأخيرة عن انتصار دين الحق علىٰ جميع الأديان.

بشرىٰ انتصار الحق علىٰ الباطل في رسائل النبي (ص):

اخترنا في هذه الفقرة نموذجاً من غير القرآن الكريم تتعلق بموضوع البحث؛ إنّها إحدىٰ رسائل النبي ﷺ وردت في كتاب أسد الغابة:

كتابه إلىٰ زياد بن جهور: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلىٰ زياد بن جهور. سِلمٌ أنت فأنا أحمد الله إليك الذي لا إله إلّا هو. أمّا بعد فإنّي أُذكّرك الله واليوم الآخر. أمّا بعد فليوضَعْنَ كلّ دين دان به الناس إلّا الإسلام...»[1].

من خصائص كتب النبي ﷺ أنّها كانت مختصرة ومفيدة، ونادراً ما يلاحظ الإسهاب فيها، حيث تشاهد في بعض الرسائل جملات يمكن حذفها، لكنها بشكل عام كانت تتسم بالاختصار والبساطة، فلماذا يا ترى هذا الأسلوب المختصر والبسيط؟ ولدىٰ مقارنتها (وهي كثيرة موزعة علىٰ سنوات عديدة) بالقرآن الكريم يلاحظ أنّها تختلف كلياً في الأسلوب، وفي هذا دليل آخر علىٰ وحيانية القرآن الكريم.

يبدأ الرسول ﷺ بالبسملة، ثم يذكر المرسل والمرسل إليه، ثم يقول له: «سلمٌ أنت» وقد تكرر أسلوب النبي ﷺ هذا عند مخاطبته مَنْ هم على حافة الإيمان، فيقول له: أنت سلم، أي أنّك سالم، أو بدل تحية السلام عليكم، أو أنك في حالة من السلم والصلح، أو أنّه

---

(١) ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٢، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٧هـ، ص٢١٨ و٢١٩.

دعاء له بالسلامة، أو هي تحية له. ثم يحمد الله الذي لا إلٰه إلّا هو. ثم يدخل بكلمة «أمّا بعد» إلى صلب الموضوع فيذكّره بالله وباليوم الآخر وعدم نسيانهما، ثم يؤكد له زوال كل دين يدين به الناس إلّا الإسلام. وتلاحظون أنّه يؤكّد بأنّ الأديان تتلاشىٰ واحداً بعد الآخر إلّا الإسلام، وينتابنا أنا وأنتم حينما نطالع هذه الآيات والرسائل وعشرات الدلائل الأُخرىٰ إحساسين: الأول، ربّما نشعر بالفخر والاعتزاز، لأنّ النصر سيكون حليفنا في هذا الصراع العالمي، وإننا نحن الذين سنرث الأرض. والثاني، في المقابل حينما نعود إلىٰ الواقع نرىٰ لا وجود لهذا النصر، وإننا لسنا الفائزين النهائيين في هذا الميدان، فنحتار في الأمر!

❑ أحد الحضور: الذي ينتصر هو الإسلام لا المسلمين.

ـ الإسلام ينتصر؟ كلا، بل قل إنّ المسلم هو الذي ينتصر لا نحن! أجل، قل إنّ المسلم هو الذي ينتصر لا نحن!. حسناً، ما هو المراد من هذا النصر المبّشَّر به؟ هل يقصد به النصر في زمن النبي ﷺ؟ هذا أحد الاحتمالات، ذلك أنّ الله يريد أن يبشّر النبي ﷺ والمسلمين بأن حركتكم ستنتصر في النهاية، وهو ما حصل فعلًا حينما انتصر الإسلام في مرحلة معينة علىٰ جميع الأديان المعاصرة، ثم سقطوا عن عرش العزّة. فهل هذا هو المقصود؟ أم المقصود أن هناك انتصار نهائي للإسلام وللحق والعدل بعد حقبات وتقلبات تاريخية مختلفة؟ أي ما جاء في الروايات عن الإمام المهدي عليه السلام من أنه «يملأ الأرض قسطاً وعدلًا كما مُلئت ظلماً وجوراً» ومن إخبار عن نصر نهائي؟ أم أنّها بصدد وضع سنّة مفادها أن النصر هو حليف من يسعىٰ في طريق تحقيق الحق والعدل دائماً؟ ربّما أُريد به كلا المعنيين بلا أي تناقض بينهما: انتصار النهضة الإسلامية. كما أن أي نهضة نحو الحق والعدل تجري في مسير النصر، وأن النصر

النهائي الحتمي سيكون حليف أي حركة تتجه بقيادة مخلصة نحو الحق والعدل.

ثمّة آيات أخرىٰ في القرآن الكريم يمكن الاستشهاد بها في هذا البحث، كالآيات التي تشير إلىٰ عاقبة المؤمنين والمتقين كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أو ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فهي إمّا أنّها تخص الآخرة ويوم القيامة، أو العاقبة الدنيوية، أو كلاهما. وفي هذا الموضوع آيات كثيرة سأتجاوز ذكرها إلىٰ آيات أخرىٰ أرىٰ أنّها أكثر ضرورية لهذا البحث المختصر. فهناك الآيات التي يبشّر بها الله عباده الصالحون بأنّهم سيرثون الأرض:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[1].

«الذكر» إشارة إلى التوراة، وعبارة «أهل الذكر» التي وردت في القرآن غالباً ما جاءت بهذا المعنىٰ، كما أن الذكر هو اسم للقرآن الكريم. وهذه كلها كتب تذكّر بالله وبالحق، لكن كلمة «الذكر» في الغالب هي إشارة إلىٰ التوراة.

هل المقصود بالآية إن العباد الصالحين سيرثون في يوم القيامة الجنة التي عرضها كعرض السماوات والأرض، أم أنّهم سيرثون هذه الدنيا ويحكمون قبضتهم علىٰ هذه الأرض؟ ومتىٰ يكون؟ في آخر الزمان أم إنّه مبدأ دائم؟

انتصار الحق علىٰ الباطل في الزبور:

لكي يتضح لنا معنىٰ الآية بشكل جليّ، فإننا مضطرون لقراءة

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: (١٠٥).

الزبور لنرىٰ ما الأمر. لما جاء فيها من إشارة إليه في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ...﴾ وهذه الإشارة مذكورة في الباب السابع والثلاثين من مزامير داوود: «لا تغر من الأشرار، ولا تحسد عمّال الإثم، فإنهم مثل الحشيش سريعاً يُقطعون ومثل العشب الأخضر يُذبلون. اتكل علىٰ الرب وافعل الخير، اسكن الأرض وارع الأمانة. وتلذذ بالرب فيعطيك سُؤل قلبك. سلّم للرب طريقك، واتكل عليه وهو يُجري. ويخرج مثل النور برّك وحقك مثل الظهيرة. انتصر الرب واصبر له، ولا تغر من الذي ينجح في طريقه من الرجل المجري مكايد. كف عن الغضب واترك السخط ولا تغر لفعل الشر، لأنّ عاملي الشر يُقطعون، والذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض، بعد قليل لا يكون الشرّير. تطّلع في مكانه فلا يكون. أمّا الودعاء فيرثون الأرض ويتلذذون في كثرة السلامة. الشّرير يتفكّر ضد الصديق ويحرّق عليه أسنانه. الرب يضحك به لأنّه رأىٰ أن يومه آت. الأشرار قد سلّوا السيف ومدّوا قوسهم لرمي المسكين والفقير لقتل المستقيم، طريقهم بسَيْفُهُم يدخل في قليهم وقسيّهم تنكسر، القليل الذي للصديق خير من ثروة أشرار كثيرين. لأنّ سواعد الأشرار تنكسر، وعاضد الصديقين الرب. الرب عارف أيام الكملة وميراثهم إلىٰ الأبد يكون. لا يخزون في زمن السوء وفي أيام الجوع يشبعون. لأنّ الأشرار يهلكون وأعداء الرب كبهاء المراعي. فنوا. كالدخان فنوا. الشرّير يستقرض ولا يفي، أمّا الصّديق فيترأف ويعطي. لأنّ المباركين منه يرثون الأرض، والملعونين منه يقطعون. من قبل الرب تثبت خطوات الإنسان وفي طريقه يُسَرّ. إذا سقط لا ينطرح لأنّ الرب مُسند يده. أيضاً كنتُ فتىً وقد شخت ولم أر صدّيقاً تُخُلي عنه ولا ذرية له تلتمس خبزاً. اليوم كله يترأف ويقرض ونسله للبركة. حِد عن الشر وافعل الخير واسكن إلىٰ الأبد. لأنّ الرب يحب الحق ولا يتخلّ عن أتقيائه، إلىٰ الأبد

يحفظون. أمّا نسل الأشرار فينقطع. الصديقون يرثون الأرض ويسكنونها إلىٰ الأبد. [هذه آية النص. لاحظوا التكرار فيه بأن الصالحين سيرثون الأرض إلى الأبد] فم الصديق يلهج بالحكمة ولسانه ينطق بالحق بشريعة إلهه في قلبه. لا تتقلقل خطواته. الشرّير يراقب الصديق محاولاً أن يميته. الرب لا يتركه في يده ولا يحكم عليه عند محاكمته. انتظر الرب واحفظ طريقه فيرفعك لترث الأرض. إلىٰ انقراض الأشرار تنظر. قد رأيت الشرير عاتياً وارفاً مثل شجرة شارقة ناضرة. عَبَرَ فإذا هو ليس بموجود والتمسته فلم يوجد. لاحظ الكامل وانظر المستقيم فإن العَقِب لإنسان السلامة. أمّا الأشرار فيبادون جميعاً. عَقِب الأشرار ينقطع. أمّا خلاص الصدّيقين فمن قبل الرب حصنهم في زمان الضيق. ويعينهم الرب وينجّيهم. ينقذهم من الأشرار ويخلصهم لأنهّم احتموا به».

ماذا نفهم من هذا التأكيد والتكرار لهذه المسألة؟ هل يراد منها القول فقط بأنّ النصر سيكون حليف الصالحين؟ إذن فما هذا الذي نحن فيه؟ إننا نخوض نزاعاً علىٰ التوافه! ذلك أن الحركة التي تقوم علىٰ أساس الحق والعدل وتأخذ بعين الاعتبار هذين الأمرين اللذين تم التأكيد عليهما في هذا المقطع من الزبور، وتتخذ في المنهج والعمل والقيادة منهما محوراً للانطلاق فإنّ النصر سيكون من يصيبها كمبدأ ثابت. هذا أولًا، وثانياً فإن نصراً نهائياً محتوماً سيكون بانتظارها. وثالثاً إنّها ستحقق انتصارات أساسية في مقاطع خاصة من التاريخ، ولكن كل هذا لا يتحقق إلّا بشرط واحد هو: أن تكون الحركة سائرة نحو الحق والعدل والصلاح والتقوىٰ والانصاف.

لا يعني النصر الذي نتحدث عنه أن يناله وبشكل نهائي كل من انتفض فرداً أو جماعة، إنّما يراد به أن هذه الحركة التي بدأها الفرد أو

بدأتها الجماعة لن تذهب سدىٰ ولن تتبخر أدراج الرياح، بل ستقود إلىٰ حركات أخرىٰ تطلب الحق على أي حال يجب أن تكون حركة حق.

وما يؤسف له أن النهضات التي انطلقت علىٰ مدىٰ التاريخ لم تكن تصبوا إلىٰ الحق والعدل إلّا ما ندر منها، ذلك أن معظم الحروب والصراعات التي شهدتها البشرية وقعت بين الزعامات والملوك والأباطرة واللصوص، أمّا تلك التي نحت منحىٰ الحق وانطلقت ضد الظلم والجور والباطل لتحقيق العدل فهي نادرة في التاريخ، وهي إمّا حققت النصر أو هيأت الأرضية الخصبة لاستمرار الحركة في سبيل إحقاق الحق وتدمير الباطل.

هل هناك في التاريخ حركة لأهل الحق ضاعت في متاهات هذا التاريخ؟ علينا أن ننظر إلى الأمر بصورة نسبية، فتارة يكون النزاع طبقي يتحرك فيه المظلوم والمحروم ضد الطبقة الحاكمة الظالمة، فهذه الحركة تتسم بالمشروعية أساساً، لكنها قد تتلبس بأسلوب وشكل غير مقبول، لأنّ ثورة الطبقة المظلومة ضد الطبقة الظالمة تنطلق تارة للوصول إلىٰ حق مسلوب، وقد تحدث ليصبح المظلوم الثائر فيما بعد ظالماً، وعندئذ فإن مثل هذه الحركة ستكون في بدايتها نوراً ثم يخفت نورها في منتصف الطريق لتتحول في نهايته إلى ظلام. هكذا كنا نحن حين حملنا كأُمّة لواء التوحيد والعدل، ثم صرنا إلىٰ حمل لواء الشرك والظلم، فحقّ علينا أن نُسحق بيد الآخرين ونفقد العز الذي كنا عليه بسبب تركنا لشعار الحق والعدل.

دور الدعوة إلى الحق في النشاط الاجتماعي:

أشير هنا إلىٰ ملاحظة تعتمد علىٰ التجربة لا على الدين والقرآن والتعاليم، فبعد تجربة ذاتية مستمرّة وطويلة أعلنها بصراحة أن النشاط الذي مارسته بشكل منفرد أو جماعي خلال السنوات التي قضيتها كان

موفقاً متىٰ ما كان خالصاً للحق والعدل، وأينما وجهت إلينا بعض الضربات ؟ (ربما كان بعضها في سبيل الله، وبالنتيجة فهي لا تؤلم) وواجهنا في طريقنا المشاكل والعقبات فبسبب ما يشوب النية وخلوصها إزاء التوجه إلىٰ الله والحق والعدل. إنكم لو تتبعتم هذه الأحداث المتنوعة الفردية منها والجماعية التي مرت بنا خلال السنوات الماضية ـ لا سيما أولئك الذين عايشوا هذه الأحداث بتفاصيلها ـ لأيقنتم أن الأشخاص الذين انصبّ سعيهم باتجاه الحق والعدل والنور كان التقدم من نصيبهم حتىٰ في أسوأ الظروف، وبمجرد أن تلوثت النوايا بحب الذات والبحث عن المنافع وتحقيق المصالح تدهوروا من تلك الذروة التي وصلوا إليها. فهذه سُنّة طبيعية أن يكون النصر من نصيب أيّة حركة تتطلع إلىٰ العدل والإنصاف والحق وتبعد عن الباطل والهوىٰ والذات والشيطان والأنا، لأنّ الصفات السلبية من شأنها أن تلغي أيّة قيمة للحركة وتجعلها تتآكل من الداخل.

إن ما يميّز رجال الحق ـ وهي ميزة لا نأخذها مع الأسف بنظر الاعتبار بسبب ضعف تربيتنا ومعرفتنا ـ هو أنهم لا يتطلعون إلىٰ النصر كثمرة جهودهم أيام حياتهم، لأنّ الزمن في منظورهم هو وحدة واحدة لا تتجزّأ، لا فرق عندهم بين اليوم وبعد ألف عام، فهل هذه الخصلة متأصّلة فينا وفي جهودنا إلىٰ هذا الحد؟ وما مدىٰ استعدادنا للقيام بجهد مجهول إلىٰ ثلاثين عاماً، بحيث لا يشعر بهذا الجهد ولا يراه أحد سوىٰ الله تعالىٰ يحدونا أمل في أن يرث الآخرون نتائج سعينا وثمرات جهدنا بعد موتنا؟ وإذا بُذلت جهود في مجالات مختلفة اقتصادية وعملية واجتماعية وسواها، هل بوسعنا أن نصفها بأنّها جهود في طريق الحق، وما هو مدىٰ صحّة إطلاق هذا الوصف عليها؟ إنّهم حقاً ورّاث الأرض أولئك الذين نستطيع أن نعدّهم من العباد الصالحين. ولهذه الوراثة ثلاثة تجليات يمكن استكشافها من مجموع الآيات والنصوص الواردة بهذا الشأن:

الأول: أولئك الذين يجاهدون في سبيل الحق والعدل هم دائماً الأصحاب الحقيقيون لهذه الأرض. إن حقائق هذا العالم والحركة العامة لعالم الوجود وهدفية خلق السماوات والأرض كلها تستلزم أن يُخلق الإنسان ليعبد الحق ولتتجه حياته نحو الحق والعدل. ولمّا كان العالم ينساب في هذا الاتجاه فلا بد للمجتمع أن ينساب بنفس الاتجاه، لتتحرك الأجيال الصالحة المتبعة للحق علىٰ إيقاع النصر.

ثانياً: في مراحل مختلفة تحقق الحركة التاريخية للصالحين نصراً مقطعياً وليس نهائياً، ويتجلىٰ هذا النصر في ظروف محددة، وبالنتيجة يجب أن يقترن الأمل والرجاء بهذا الجهد المبذول، وأن لا يتوقف هذا السعي مهما كانت الظروف، لأنّه لا يذهب سدىٰ أبداً.

ثالثاً: إن اليوم الذي سينتصر فيه الحق والعدل بشكل نهائي علىٰ هذه الأرض قادم لا محالة، وسيرىٰ الإنسان المعاصر في مقطع من الزمان ثمن جهوده وجهود كل من ضحىٰ في هذا السبيل خلال العهود السابقة له، بأن الحق والعدل سينتصران علىٰ الباطل والظلم نصراً حاسماً.

كان هذا خلاصة ما يمكن عرضه من هذا البحث، وقد كنت مضطراً للإسراع به بعد أن قررت أن أختمه بثلاثة مجالس. وإلّا فإنّ ما تطرقنا إليه لا يعدو كونه جزء من بحث واسع مفصل عن الحق والباطل في القرآن والإسلام، وثمّة فقرات أخرىٰ لا تقل أهمية عمّا ذكرنا، نحو: ما هي معايير الحق والباطل؟ وهو موضوع أشرنا إلىٰ جزء يسير منه في المجالس السابقة، ولكن حينما ندخل في تفاصيله وقضاياه الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والعائلية نلاحظ أنّه يحتوي علىٰ تجليات في غاية اللطافة مما يستحقّ أن نخصص له بحثاً منفصلًا في الفرصة المناسبة. إنني إذا حالفني التوفيق فسأؤدي في المستقبل ما عليّ

من مسؤولية تجاه إخواني وأعزائي، وسأتابع مقطع آخر من هذا البحث، وكان بودّي أن تتوفر الفرصة وأواصل هذا الأمر دون انقطاع ما دام الاستعداد الذهني مهيئاً له، وهو ما لا يتاح لي حالياً مع الأسف. وبوسع أي من الأخوة أن يتابع البحث فلا فرق بيننا، وأنا علىٰ استعداد لوضع ما استخرجته بتصرفه ليواصل البحث دون أن يكون له أي ارتباط خاص بي. والحمد لله رب العالمين وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد وآله الطاهرين.

أسئلة وأجوبة

❑ السيد انتظاري: أتصور أن [من الأفضل] أن يبحث الدكتور في معنىٰ النصر نفسه، لأنّ التصور الذي نحمله عن النصر هو النصر النهائي الذي يلازم الحق في جميع مراحل التاريخ، أو أنّه يتماشىٰ معه في بعض مقاطع التاريخ. هل من الواجب آنذاك تعريف معنىٰ النصر بأنّه الأمر الذي سيكون في النهاية أمراً حقيقياً؟ أم إنّ النصر هو ما وصل إليه الحق في بعض مقاطع التاريخ؟ إذا كان هذا هو النصر فهذا صحيح والحق منتصر أيضاً، أمّا إذا كان النصر ما نحمله من تصور من ضرورة دائمة لوجود النصر، ولا بد من وجود طرف منتصر، فإن معاوية أيضاً يزعم أنّه علىٰ الحق لأنّه منتصر. أعتقد أن البحث سيظل ناقصاً إذا لم يوضح الدكتور هذه المسألة.

ـ عفواً السيد انتظاري إنني لم أفهم قصدك من السؤال. إمّا أن توضحه، أو أن يبادر أي من الأخوة استوْعَبَ السؤال إلىٰ توضيحه لي.

❑ السيد انتظاري: سؤالي هو ماذا يعني النصر؟

ـ كربلاء هي مصداق للنصر، فهي ما زالت مستمرّة إلىٰ يومنا

هذا، وحالياً أيضاً فإنّ الحق منتصر دون أن يُرىٰ ذلك. أيكفي هذا يا سيد انتظاري؟

❑ السيد انتظاري: أجل، أنا أقول ما هو النصر الذي نقول بأن الحق سيصل إليه؟ لو كان تصورنا له هو ما ذكرناه فهو متحقق دائماً، فما هو هذا النصر؟

ـ هل تقصد بالنصر الذي يؤدّي إلىٰ استلام السلطة أم شيء آخر؟ هل هذا هو السؤال الذي تتفضل به أم أن في ذهنك أمر آخر؟ أي ما هو النصر إذا لم يكن معناه الوصول إلىٰ سدة الحكم؟

❑ السيد انتظاري: أعتقد أنّه لا يمكن أن يكون شيئاً آخر.

ـ هل هذا هو المعنىٰ الوحيد له؟

❑ السيد انتظاري: هكذا أتصور.

ـ إذن لا يدور في خلدك إلّا معنىً واحداً للنصر، وهو استلام زمام الحكم وإدارة شؤونه؟

❑ السيد انتظاري: أجل، هكذا.

ـ حسناً، ونحن أيضاً أردنا هذا المعنىٰ، فنقول أولّا إن جهود الصالحين لتحقيق النصر ينبغي اعتبارها سلسلة مستمرة لا مرحلة منقطعة، وللنصر بهذا المعنىٰ تجليَيْن: أحدهما نصر في مقاطع معينة من التاريخ، وثانيهما نصراً حاسماً سيقع في نهاية التاريخ. وما قلناه هو أن هذا السعي في طريق النصر يعني أن الفرد أو الجماعة التي تعمل للحق وتسعىٰ في طريقه تحقق انتصاراً معيناً علىٰ الباطل بقدر ما يسمح له الأفق، ويعني استلام السلطة بالنسبة للفرد السائر علىٰ طريق الحق، وهو يحقق النصر بأخذ زمام الأمور من يد الباطل، وقد تجلى هذا المعنىٰ أيضاً في نهضة الإمام الحسين عليه‌السلام باعتبارها نهضة فاتحة،

لأنّها سلبت الكثير مما كان في يد معاوية ويزيد، وكل نهضة حق في أي زمن تأخذ قدراً من هذه الأمور من يد الباطل لتشكل من ثم مرحلة من مراحل النصر، وتجتمع هذه المراحل لتؤدّي في مقطع معين إلىٰ النصر الظاهري واستلام زمام الأمور كلها (ذلك نصر خفي وهذا نصر ظاهر) لتصل في نهاية التاريخ إلىٰ النصر الحاسم.

❑ السيد انتظاري: وهذا ما يفعله الباطل أيضاً، حيث يستولي علىٰ قدر مما في يد الحق ليصل إلىٰ النصر الظاهر بمرور الزمن، وعملياً كان الباطل هو الأكثر انتصاراً علىٰ طول التأريخ وحتى الآن.

ـ تعني بـ «الأكثر» هنا استلام السلطة؟ قد يُفهم من الآيات ومن البحث الذي تطرقنا إليه، بأنّ الحق هو الذي يستلم الأمور، وإن الباطل لم ولن يصل إلىٰ السلطة، في حين أن القرآن يشير أكثر من مرة إلىٰ علو الفراعنة في الأرض: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ومنه يتضح أن ما يطرح في مجال الحق يقترن بقبول فرضية علو الفراعنة في الأرض، ليحث الثائرين في طريق الحق إلىٰ العمل للقضاء علىٰ القوىٰ الباطلة المتربعة علىٰ سدة الحكم، وليقول إنّ النصر حليف الحق في نهاية المطاف. إذن هذا لا يعني نفي مراحل استيلاء الباطل علىٰ السلطة، إنّما يعني إعطاء الأمل بأنّ للحق أيضاً جولة ونصر، وأنّ الحق يتناوب هذا النصر مع الباطل علىٰ مدىٰ التاريخ.

لو استطعنا أن نقول بأن النصر هو استلام السلطة علىٰ حد تعبيرك، فإن ما يهيىء لهذا الاستلام هو نصر أيضاً، ذلك أن أيّة حركة حق من شأنها أن تسحب شيئاً من البساط من تحت أرجل الباطل، لتستلم في برهة زمنية معينة زمام الأمور، ولتصل إلىٰ نصرها النهائي في نهاية التاريخ.

فتح السيد انتظاري موضوعاً لبحث جديد كان مؤجّلًا إلىٰ المستقبل، أرىٰ نفسي مضطراً للدخول فيه الآن لأجيب عليه لأنه طرح في وقته المناسب وبدونه لا يكتمل البحث، فسأفتح هذا الباب الجديد ليتضح الأمر. فهل طرح القرآن مسألة انتصار الحق علىٰ الباطل كجبر تاريخي، أم أنّه قانون يرتبط بإرادة الإنسان واختياره؟

فالقرآن يقول إنّ الله جعل طبيعة حركة الحق أنّها منتصرة، لكنّه فوّض الإنسان في اختيار هذه الحركة وعدم اختياره لها، ففي المراحل التاريخية التي تغلّب فيها الباطل واستلم زمام الأمور، هل كان هناك حركة نحو الحق ثم انهزم الحق، أم أن البشرية هي التي اختارت بمحض إرادتها طريق الباطل؟

☐ السيد ناطق زاده: ألم يُهزم علي عليه السلام؟

ـ نعود إلىٰ ما سبق أن قلناه بأن النصر لا ينظر إليه من زاوية مرحلة منقطعة، وأنّ جهد من يسعىٰ في طريق الحق لن يذهب سدىٰ، بل يثمر في التجليات الثلاثة التي ذكرناها. إذا كان الأمر كذلك فكيف أمسك الباطل بزمام الأمور في أكثر فترات التاريخ؟

الجواب هو : إنّ البشرية هي التي اختارت الباطل في تلك الفترات، إنّ الانتقاد الآنف كان مشروعاً لو عَدّ القرآن الكريم انتصار الحق جبراً تاريخياً، ولكن حينما جعل القرآن هذا الانتصار مبدأ مشروطاً باختيار الإنسان نفسه، فإنّ الباطل سيستولي علىٰ الأمور عندما يكون الساعون في سبيل الحق أقلية بالنسبة إلىٰ المناصرين للباطل. ولا شك في أن جهد هذه الأقلية لن يذهب أدراج الرياح، إنّما ستحقق أهدافها حينما تثقل كفتها عبر استمرارية هذا الجهد وعدم انقطاعه.

إذن، فالنصر مشروط باختيار الصالحين لطريق الصلاح لينتصروا،

وأمام من؟ هناك موضوع قد يبدو بأنّه غير مهم، لكن ليس الأمر كذلك لما يكتنفه من غموض، أمام المنهج الفكري الذي يعتقد بأن الله خلق العالم علىٰ أساس الشر، أي التفاؤل[١] أمام التشاؤم[٢]، وأمام من يرىٰ أن الإنسان كائن شرّير، وأن السلطة هي للشرّ دوماً. في حين إنّ الأمر لا يتعلّق بالسلطة بذاتها، لأنّ السلطة قد تكون خيراً إذا استخدمت من أجل الخير.

بناءً علىٰ ما مضىٰ، أعتقد أن الكثير منكم يتصور بأنّ انتصار الحق علىٰ الباطل قد ورد في القرآن الكريم كقانون جبري تاريخي، في حين أن هذه الحقيقة مطروحة بشكل آخر يريد أن يبين وجود نور وظلمة، وأن الإنسان مخيّر بينهما، فإذا مال إلى جانب النور كان الله معه وأخذ بيده إلىٰ النصر علىٰ أن لا يدبّ اليأس فيه، وهذا مما أشارت إليه الآيات المكية التي تلوتها ومقطع الزبور الذي مَرّ علينا، حيث تتحدث كلها عن احتمال أن يصاب المرء بالقنوط من جهاده في سبيل الحق، ويحذر القرآن من الوقوع في هذا الخطأ لئلا يؤدي بالإنسان إلىٰ الالتحاق بالأشرار والمتشائمين.

❑ السيد ناطق زاده: باختصار إنني أوافق علىٰ هذا، وأعتقد أنك عنيت ما عنيناه من أن الحق منتصر أيضاً، ولهذا فإنّك جعلت ارتباطاً بين النصر وبين العمل.

ـ أجل، وفي مقابل الرأي الذي يرىٰ أن النصر هو من نصيب الباطل فقط، غاية الأمر أنني أضيف هنا بأن الله ينمّي عمل الحق علىٰ قاعدة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

---

(١) Optimism.

(٢) Pessimism.

هنا لا بدّ لي أن أشير إلىٰ ملاحظتين: الأولىٰ، ما قلته مراراً في المباحث المرتبطة بالإمام المهدي عليه السلام من أن الاعتقاد بالإمام الغائب وانتظار فرجه يترك أسوأ أثر تخديري يمكن أن تحمله عقيدة مؤملة لو أنّها كانت تعني لنا الوقوف مكتوفي الأيدي بانتظار مجيئه لإصلاح الأمور؛ أمّا إذا فسّرنا الانتظار علىٰ أنّه انتظار للنصر النهائي الحاسم والكامل والتام بتدخل عوامل غير اختيارية فهو صحيح، لأنّ الانتصارات المقطعية أي المعنى الثاني للنصر عندها يجب حث الخطىٰ نحوها من أجل تحقيقها حتىٰ قبل ظهور الإمام عليه السلام. ففي مثل هذه الانتصارات النسبية تتدخل إرادتنا المؤَيَّدَة من قبل الله تعالىٰ ويكون جهدنا مثمراً. هذا البحث الذي عالجناه والتقدم والتأخّر الذي قد تشهده الانتصارات المرحلية. أمّا النصر النهائي الحاسم فموكول إلىٰ عاملين هما: التأييد الإلهي والسعي الإنساني، أي الاختيار البشري والقيادة الربانية والتأييد الإلهي الضامن والمكمل له. إذن، في المراحل المقطعية يمكن للباطل أن ينتصر كما يمكن للحق أن ينتصر حسب الإرادة الإنسانية، أمّا ما لا دخل للاختيار به فهو النصر النهائي الحاسم الذي تتدخل فيه عوامل جبرية، بيد أن هذا الوعد يجب أن لا يقعد المجتمع عن بذل الجهد الحثيث لتحقيق انتصارات مرحلية. أجل، يحتاج الجهد الإنساني إلىٰ ما يتممه من قبل الله وإلىٰ قيادة ربّانية لتحقيق النصر الحاسم والوصول إلىٰ مفهوم «يملأ الأرض قسطاً وعدلًا».

- المهندس تاج: بسم الله الرحمن الرحيم. أود أن أجيب علىٰ سؤال السيد ناطق زاده. السماوات والأرض خلقتا بالحق، ولا شك في أنّها لن تستقر إذا لم تستوِ علىٰ الحق. ومنذ أن اقتضت المشيئة الإلهية خَلْقَ الإنسان في يومه الأول وجد الموت والباطل والفساد،

حتىٰ أن الملائكة توقعت ذلك وطرحت مثل هذا السؤال: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[1]. ومن أجل هذا قال تعالىٰ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ﴾ كما وضّح ذلك الدكتور بهشتي، حيث يعني أن الباطل يتكتل باستمرار فيقذف الله عليه الحق لئلا يسيطر الباطل، لأنّ الأرض والسماء لا يستويان بسيطرة الباطل. وتعد الأرض عضواً في غاية الصغر بالنسبة لهذا الكون الواسع، وهي أشبه ما تكون بالذرّة في هذا العالم اللامتناهي، وهذه هي نسبة الإنسان إلىٰ الكرة الأرضية.

ـ شكراً جزيلًا. لو اعتقدنا أنّ الحياة محدودة بهذا الزمن القصير الذي يمتد منذ ولادة الإنسان حتىٰ وفاته دون أن نعير للخلود أي اهتمام، لقلنا إنّ معاوية ـ على سبيل المثال ـ تربّع علىٰ عرش السلطة وفعل ما يحلو له. غير أن من أوليات أصول عقائدنا هو الاعتقاد بالمبدأ والمعاد، أي أن أمام الإنسان طريق طويل ينتهي إلىٰ الخلود.

صحيح أن معاوية بسيرته السيئة استطاع أن يحقق أهواءه أثناء سنوات عمره، لكن سوء سمعته ظلّت تلاحقُه إلىٰ الأبد، فيما سُجِل الإمام الحسين عليه السلام في ديوان الخالدين الأحياء وإلى الأبد أيضاً. إن المعتقد بالدين يعتقد بالأبدية والخلود إنْ من الناحية الزمانية أو المكانية، ومن يزرع بذرة ـ كما تفضل الدكتور ـ لا يتوقع حصادها مباشرة، بل لابد أن يتحمل المشاق والصعاب ويسقيها علىٰ مدار السنة لكي يجني ثمار أتعابه، لأنّ مثل هذا العمل لا يثمر إلّا علىٰ المدىٰ الطويل. إنّه يتطلّب جهداً لستة أشهر أو لسنة كاملة. وعليه يجب ألّا نتصور بأنّ النصر قد تحقق لمن اقترن نصره الموقت مع المعاناة في

(١) سورة البقرة، الآية: (٣٠).

وجدانه طيلة أيام حياته. فأين هو معاوية الآن من علي بن أبي طالب عليه السلام الذي يشغل كل القلوب؟ وأين هو يزيد من الحسين بن علي عليه السلام الذي يمجّد باسمه كل عشاق الحق والحرية؟ فالحسين عليه السلام هو الذي انتصر في المعركة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(١).

قبل أن أنهي البحث أشير إلى ملاحظة تعقيبية علىٰ كلام السيد تاج بأنّ خلق السماوات والأرض يتبع قانوناً جبرياً، فيما تتحدد المسائل الاختيارية بالإنسان، وأعتقد أن سؤال السيد انتظاري يرتبط بهذا القسم الاختياري التاريخي، لأنّه حصر حدود التاريخ. ويأتي هذا التوضيح في سبيل الفصل بين هذين الإثنين. ثم إنّك أردت أن تستبدل معنىٰ النصر من الإمساك بالسلطة إلىٰ اشغال القلوب، وهو ما يرتبط بسؤال السيد انتظاري. إذن هما ملاحظتان: الفصل بين التسلط الجبري للحق في نظام الوجود عن الحق والباطل في السياق التاريخي بغض النظر عن النصر الذي يتحقق لأي منهما أو الهزيمة التي تلحق بأي منهما، والأخرى النصر الذي يتحقق بمعنى الإمساك بالسلطة علىٰ أساس الحق والعدل. أو بمعنىٰ التوغل إلىٰ القلوب. وهذا المعنىٰ الثاني يخص السؤال الذي طرحه السيد انتظاري، إلّا إن المقصود بالنصر حسبما جاء في الآيات ووراثة الأرض التي ذكرتها الآية وجاءت في الزبور أيضاً هو الإمساك بالسلطة، مثله مثل الانتصار في المعركة وليس الانتصار في القلوب.

□ الدكتور زركر: أعتقد أن الحق ما يطلق علىٰ الشيء الواقعي والباطل علىٰ ما هو مجاز، أي أن الحق هو فعل والباطل حتىٰ

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: (٦٩).

وإن انتصر فهو ليس بفعل. فحينما يغيب الحق يحل الباطل، وإذا جاء الحق زهق الباطل تلقائياً، وإذا لم يأتِ استمرت جولة الباطل دائماً، بالضبط مثل تعاقب الليل والنهار، فالظلمة مجاز مثل الباطل تزول حينما يشع نور الشمس وتعود عندما تغيب؛ وعلىٰ هذا فإن انتصار الباطل ليس انتصاراً في الأساس، لأنّه يأتي في غياب الحق، ومتىٰ ما جاء الحق زال الباطل.

ـ إنّها ملاحظة دقيقة أشكرك عليها كونك وصفت الحق فعلّاً[1] والباطل انفعالّاً[2]، أو الحق موجباً[3] والباطل سالباً[4].

إن توضيح السيد زركر يرجع إلىٰ سؤال السيد انتظاري حول تعريف النصر.

❏ المهندس تاج: يمكن أيضاً الإدعاء عكس ما قاله السيد زركر.

ـ أجل، في مداخلة السيد تاج والسيد زركر دليل علىٰ أهمية السؤال الذي طرحه السيد انتظاري: ماذا يعني النصر؟ وما ذكر الآن هو معنىً جديداً للنصر: الإثبات مقابل النفي، والوجود مقابل العدم. حيث تعرف لدىٰ المقارنة أن كفة الوجود والإثبات هي الأثقل، ذلك أن العدم لا وزن له أصلّا حتىٰ يقاس ثقله. إنني أفضّل أن يُصار إلىٰ استخدام هذه التعابير في محلها المناسب، ونستخدم في هذا البحث التصور الاجتماعي المتعارف. وأذكّر بما أشرت إليه في مستهل البحث من أن معاني الحق والباطل في القرآن هي ثلاثة أو إثنان والثالث هو تحليل للمعنىٰ الثاني، فالحق يعني الوجود أمام العدم فهو الباطل، وبهذا

---

(١) Active.

(٢) Passive.

(٣) Positive.

(٤) Negative.

المعنىٰ يصف القرآن الله تعالىٰ بأنّه حق، ومعلوم هنا أن كفة الحق هي الثقيلة مقابل الباطل الذي لا وزن له.

المعنى الآخر للحق هو ما يجب أن يكون، والباطل هو ما يجب ألّا يكون، وفي هذه الحالة لا يصدق تقريباً التعبير المشار إليه. أمّا المعنىٰ الثالث فقد جاء توضيحاً للثاني حيث أن ما يجب أن يكون مأخوذ مما هو موجود، وهو ما يطلق عليه بالوجود الهادف من الزاوية القرآنية، أي أنّه واقع عيني ويجب أن يكون.

ولهذا يجب معرفة الحق علىٰ أساس هذا النوع من الوجود.

إذن هناك معيار لتعيين ما يجب أن يكون مما هو موجود وهو ميزان الحق في الإسلام مما يمهد لبحث واسع فيما بعد.

التسليم بالحق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على جميع أنبيائه ورسله، وعلى سيدنا خاتم النبيين ﷺ وعلى الأئمة الهداة من أهل بيته والخيرة من آله وصحبه، والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

قال الله تعالى:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[1].

ملاحظات عديدة تتضمنها هذه الآيات سأترك بعضها إلى بحوث لاحقة لما تحتويه تلك البحوث من أرضية مناسبة لتلاوة المزيد من الآيات حولها وإعطاءها حقها من الدراسة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (٨٦ـ٩٢).

ندخل الآن في بحث تتضمنه هذه الآيات مفاده أن القرآن والنبي ﷺ وأئمة الهدىٰ عليهم السلام جاءوا للمضي بالدعوة الإسلامية قدماً، وإن الأئمة لم يأتوا لوضع حدٍ لدعوة النبي والبدء بمنهج جديد كما ذهب البعض إلىٰ ذلك، وقد أبدىٰ الأئمة عليهم السلام استيائهم من أمثال هؤلاء مهما كانت مستوياتهم لما قاموا به من تشويه.

في الدرجة الأولىٰ وقبل كل شيء، ماذا يريد منا القرآن والنبي والأئمة(سلام الله عليهم أجمعين)؟ وماذا يريد الإسلام منا في هذه الآيات؟ وما هو الإسلام؟ إنه التسليم للحق والحقيقة.

الإنصاف هو من صلب الإسلام:

ثمّة مثل دارج يتداوله البائع والمشتري مفاده أن الإسلام ليس إلّا الإنصاف. ولهذا المثل جذر ضارب في الأعماق لأنّ الإسلام غير منفكٍّ عن العدالة والإنصاف، فماذا تعني هذه الكلمة؟ تعني أن يضع المرء نفسه مكان الآخر في كل موضوع أو كلّ تعامل، وينظر إلى موقفه، فإن كان ثابتاً لا يتغير فهو الإنصاف بعينه، أي إنّ الإنصاف يعني أن يحب الإنسان لغيره ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها. هذا هو لبّ الإنصاف، والإنصاف هو جوهر الإسلام ولا ينفصل عنه أبداً: «أحبب لأخيك ما تحب لنفسك وأكره لأخيك ما تكره لنفسك»[1].

هذا ما يريده القرآن، إنّه يريد أن يصوغ الإنسان علىٰ أساسه، وعلىٰ أساس الاستسلام للحق، وعدم الوقوف بوجهه حتىٰ وإن انتهىٰ

---

(١) أمثال هذه العبارة نجدها في كلمات الأئمة عليهم السلام منها:

أ ـ نهج البلاغة، الرسالة ٣١ «فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها».

ب ـ سجع الحمام في حكم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ص٣٨: «أحبب لغيرك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها».

لغير صالحه، وأن يقول الحق ولو علىٰ نفسه «قولوا الحقّ ولو على أنفسكم» ومتىٰ ما جاء الحق يجب أن تتخلىٰ عن الأنا، وعن ارتباطاتنا الأسروية والاجتماعية. إن هذه الحالة ـ ومع الأسف ـ لا نجد لها مصداقاً مكيناً في الأمّة الإسلامية، فقد ابتعدنا عن هذا المرتكز الأساسي، وأصبحنا ننحاز إلى حسناتنا لدىٰ مقارنتها مع الآخرين، ونغض الطرف عن نقاط ضعفنا وسيئاتنا وسيئات مَن ننتصر له. كما أصبحنا نستصغر سلبياتنا ونستكثرها علىٰ من لا نحب. وأضحينا ننظر إلى القليل من إيجابياتنا علىٰ أنّها كثيرة، وإلىٰ الكثير من إيجابيات من لا نريد علىٰ أنّها قليلة. ورُحنا ندعو إلىٰ استحقار الآخرين واستهجانهم حتىٰ ابتعدنا ـ وللأسف الشديد ـ كثيراً عن الإسلام الحقيقي.

إنني أركّز على هذه المسألة لما رأيت من التأثير الكبير للدور الإيجابي الذي يؤديه الإسلام، وللدور السلبي الذي يؤديه الكفر علىٰ نفسي وعلىٰ الآخرين سواء من الأعداء أو الأصدقاء. فقد لمست عن قرب الدور السلبي للكفر وعدم الاستسلام للحق في الإضرار بدنيا المرء وآخرته، حتىٰ أصبح هذا الموضوع من الحيوية بالنسبة لي أن أجد فيه الجديد في كل مرة أطرقه وأنا أتحدّث عن الإسلام. وأرجو منكم أن تستطلعوا ما حولكم ماضيا وحاضر وتراجعوا علاقاتكم لتلمسوا عن كثب الدور المخرب للكفر وعدم الخضوع للحق، ودراسة النتيجة التي يمكن أن تستحصل فيما لو حلّ الإسلام والاستسلام للحق محل تلك المواقف. وعندئذ سيجري هذا الهمّ مجرىٰ الدماء في عروقكم، ويكون الحديث عن الإسلام في كل مرّة حديثاً مشحوناً بالحرارة والحيوية.

وفي تقييمي للوجوه الاجتماعية البارزة، أرىٰ الإسلام ضعيفاً عند الجميع بلا استثناء وأنا منهم، لأنّني حينما أتحدّث عن هذه الجوانب

السلبية أستخدم ضمير المتكلم «نحن». إننا بعيدون عن الحق ولا نستسلم له إلّا بصعوبة، ولا نحرّك رؤوسنا كعلامة علىٰ الرضا إلّا بعد أن نقلب أوجه الأمور ألّا يصيبنا ضرر أو يلحق بنا أذىٰ، أمّا الحق والوقوف إلىٰ جانبه فهو آخر ما نحسب له حسابه. ولكن حينما يتجذر الإسلام في المرء فإنّه يبادر إلىٰ نصرة الحق بكل قوة ورغبة، ذلك أن الآيات الكريمة تؤكد لنا أن القرآن ومُنزِله والنبي وآله سلام الله عليهم أجمعين كلهم يدعوننا إلىٰ كلمة واحدة وألا وهي عدم مقاومة الحق، والاستعداد لقبوله والامتثال له، وتوظيف الجوارح كلها لمعرفته والتهيؤ للعمل به.

مقاومة الكفر

لماذا يكرّ الإسلام علىٰ الكفر دائماً؟ ولماذا يتشدّد حياله؟ هذا سؤال قد يطرحه أنصار الحرية الليبرالية الذين يعتقدون أن الإنسان يستطيع أن يعيش في ظل مبادىء الليبرالية الفاشلة التي أطلّت في أوروبا في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر.

عمّاذا تريد أن تكشف حكاية خلق الإنسان والشيطان؟ إنها تريد أن تبيّن أن العالم الأول لانحراف البشرية عن الطريق القويم هو الكفر الذي بدأ بكافر ثم انتقلت عدواه إلىٰ غيره. لقد استطاع الشيطان أن يتغلغل إلى آدم بمقدار جناح بعوضة أو أقل، إلّا أنّه استطاع أن يغيّر في حياة آدم الكثير، لما للكفر من دور كبير في الهدم والتخريب.

أكرر ثانية وأقول إن لمس هذا الدور عن قرب يتطلب القيام بدراسة ميدانية لملاحظة التأثير المدمّر للكفر وعدم الخضوع للحق، وبدل أن تدققوا ذهنياً بكلامي، تدققوا عينياً به، حينئذٍ عليكم أن تدرسوا الأمر بشكل عيني وعملي، ويمكن هضم الآيات القرآنية التي تتخذ من الكفر مواقف مشددة، واستيعاب هذا المبدأ السامي الذي نغفل عنه. فلا بد

من اتخاذ هذا الموقف العنيف أمام الكفر، وأمام عدم الانصياع إلىٰ الحق. ولم لا؟ إن الإنسان الغارق في بحر الكفر، والذي لم يتذوق طعم الإيمان هو فرد سيء، والأسوأ منه ذلك الذي يدخل الإسلام ثم يعود إلى الكفر لتعلقه الشديد بالحياة المادية المنحطة، وعدم تحمله البقاء فيه لما يأمر به الإسلام من الحق والإيثار ولما ترفضه نفسه من الإيثار والخضوع للحق. والآيات المذكورة تبيّن موقف القرآن الكريم من أمثال هؤلاء: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هذه البينات التي جاءتهم لم تنفع معهم في ردعهم عن طريق الكفر، لأنّهم واقعون تحت تأثير ماديّات الحياة التي لا تتفق مع الحق. فكيف يهدي الله هؤلاء القوم الذين كفروا بعد إيمانهم؟ القانون الإلهي هو: أن الله لا يهدي القوم الظالمين والمعتدين، ولا يأتي بهم إلىٰ جادة الصواب بالقوة. وعلىٰ المعتدي أن يعلم أن عدوانه سيجلب له البؤس والشقاء ويبعده تلقائياً عن الإسلام، لأنّ في الإسلام العدالة، وإن الحق والعدل لا ينفصمان عن بعضهما، كما لا ينفصل عنهما الانصاف والصدق والأمانة.

إنّ جزاء هؤلاء هي اللعنة الدائمة والعذاب المستمر، إلّا من تاب منهم بعد ذلك وأصلح، أي أنّه عاد مرة أخرىٰ إلىٰ الإسلام صادقاً، وقام بإصلاح ما أفسده أثناء كفره وارتداده (وهي حالة نادرة الوقوع) فإنّ الله عندئذ غفور رحيم، وهذه هي سنّة الله أن يغفر لمن يستحق الغفران، ويرحم من يستأهل الرحمة.

ومن المناسب أن نتوسّع في بحث التوبة، ولكن سندعه إلىٰ الآيات التي تفصّل في هذا الموضوع.

في الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾

ما هو المقصود بعدم قبول التوبة؟ هل إن الله لن يكتب لهم التوفيق للتوبة، أم إنّهم قد يتوبون، ولكن الله لن يقبل توبتهم؟

الجواب يرتبط بالبحث الثاني الذي أوكلته للمستقبل، عن أقسام الارتداد وحكمه في القرآن والمبادىء الاجتماعية والنفسية، والأحكام المشددة في الإسلام حو المرتد.

إن الآيات الأخرىٰ التي سنتطرق إليها توفّر أرضية مناسبة للبحث وتكمل الجزء الأول منه. فكيف يمكن للإنسان أن يخرج عن الإسلام؟ وهل إن فطرته لا تنسجم مع الحق؟ هذا ما سنوضحه في بحث إنساني يؤثر في معرفة الإنسان، وأرجو أن يتضح لنا جميعاً في هذا الوقت المتبقّي.

العلاقة بين الإنسان والحق

هل ثمّة تنافر طبيعي بين الإنسان والحق؟ وهل إن الإنسان كائن مضاد للحق، وأن فطرته لا تتفق مع الحق؟ أم أن الأمر غير ذلك؟

الأديان والمذاهب المختلفة بحثت كثيراً في هذه المسألة بوصفها تمتد إلى العمق والجذر والتاريخ. وقد اعتقد المتشائمون بأن الإنسان هو كائن شرّير بفطرته، وهي عقيدة يمكن استيعابها بسهولة خاصة حينما ينظر المرء إلىٰ أطرافه ويرىٰ الشّر يتطاير أينما امتد بصره، ويلاحظ أن الإنسان قرين الانحراف والاعوجاج. غير أن للقرآن رأياً آخراً عن الإنسان وفطرته وارتباطه بالحق، ولدينا قرائن تصدق هذا الرأي يمكن مشاهدتها بالعيان. فالقرآن يرىٰ وجود علاقة وثيقة بين الفطرة البشرية وبين الحق، وإنّه تعالىٰ حينما يتحدث عن خلق الإنسان ويقول عنه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[1].

---

(١) سورة الحجر، الآية: (٢٩).

والإنسان لا يصبح إنساناً إلّا حينما ينفخ فيه من روح الله، ما يبيّن وجود علاقة قريبة جداً بينه وبين الله الذي هو الحق المطلق. ولكن لِمَ كل هذا الانحراف لو كانت العلاقة بين الإنسان والحق متجذرة إلى هذا الحدّ؟

معاناة الاختيار

القرآن الكريم يدعو إلىٰ الاهتمام بهذه الروح الإلهية التي نفخت في الإنسان مع ما فيها من خصائص أصيلة. إنّ الله تعالىٰ الذي تتصف أفعاله بالاختيار المطلق قد حمَّل الإنسان وهو ينفخ فيه من روحه مسؤولية صغيرة تتمثل في تخييره لاختيار مستقبله المظلم أو المضيء عبر وجوده وعلاقات هذا الوجود مع الطبيعة والبيئة والمجتمع.

أجل، إن من يحمل وسام الإنسانية، وتنبض فيه روح الله، عليه أن يتحمّل مسؤولية الاختيار، فهناك مثل أجنبي يقول: «إن من له حق الانتخاب عليه معاناة الانتخاب أيضاً». يتجلىٰ هذا المعنىٰ في الأنظمة التي تحكم البلدان دون انتخابات ودون أن يشارك الشعب في تقرير مصيره، بل دون أن يكلّف نفسه عناء البحث عن الأفضل والأصلح لانتخابه وتقليده زمام الأمور. في مثل هذه الأنظمة لا يتحمل الشعب أي معاناة في اختيار من مثّله، ولا علاقة له بما يجري فهو في وادٍ والنظام الحاكم في وادٍ آخر.

أمّا في الأنظمة القائمة علىٰ أساس الانتخابات وعلىٰ أساس آراء الشعب، فليس من السهولة بمكان إجراء هذه الانتخابات لما يكتنف مجمل العملية من صعوبات في التعرف علىٰ الأفراد وإعطاء الرأي لصالحهم ثم فرز هذه الآراء وإلىٰ آخره من مراحل العملية الانتخابية. ويمكن لمس هذه الصعوبات علىٰ مستوىٰ أصغر حينما يراد تفويض فرد أو مجموعة لإدارة شركة مدنية أو مدرسة أو أي مجتمع مصغّر،

فالمجتمع الذي يطلب حق الانتخاب عليه أن يعلم أنّ هذا الحق تتبعه مشقّة أيضاً.

وهذا هو أحد الأسباب التي تُفضي إلىٰ فشل المجتمعات التي تفكّر بالحصول علىٰ حق الانتخاب دون أن تستعدّ لمتاعبه، أي أنّها تطلب حريتها وحقها في الانتخاب، ثم سرعان ما ترىٰ أنّها واقعة في شراك الفشل واليأس والإحباط، لأنّها لم تكن تعلم بأن عملية الانتخاب لتسليم زمام الأمور إلىٰ من هو أصل لها يتطلّب الكثير من العمل والاستعداد والمهارة، ولا يمكن الوصول إليها بثمن بخس.

حسناً، علىٰ هذا الإنسان الذي يمتلك هذه الفطرة المتوافقة مع الحق أن يختار سبيل الله في ميدان العمل، لأنّه تعالىٰ لا ولن يفرض عليه هذا الخيار بالقوة، بل عليه أن يذهب إليه بنفسه بما تستبطنه هذه العملية من مشقة بالغة، لأنّ الإنسان تستقطبه وتحاول أن تجرّه إليها خيارات ودوافع شتىٰ، وما عليه إلّا أن يتحلّىٰ بقدر كافٍ من الوعي والإدراك لكي يختار ويحسم أحد هذه الخيارات.

ومن تلك الخيارات: فطرة الإنسان نحو الحق إلىٰ جانب العديد من الدوافع الفطرية الأخرىٰ التي تحاول أن تجرّه إليها، ذلك أن الإنسان كائن متعدد الأبعاد: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾[1].

ففي الطريق ذو الاتجاه الواحد لا يحتاج المرء إلىٰ تفكير ليحدد مساره، أما الاتجاهات المتعددة في الطريق هي التي تعطي للاختيار معناه الحقيقي. وفي الإنسان أيضاً هناك الفطرة التي تدعوه إلىٰ الحق، وإلىٰ جانبها أنواع أخرىٰ من الدوافع الفطرية التي تزيغه عن الحق. علىٰ هذا الأساس فإن الإنسان في المنظور الإسلامي ليس أسود الفطرة تماماً

---

(١) سورة الدهر، الآية: (٢).

ولا أبيضها، إنّما يقف بين الإثنين، فلم يخلق في ظلمات دامسة ولا في نور ساطع إذا ما طغت على حياته بقع سوداء مظلمة أو مساحات مشرقة، فهو يملك مفتاح الاختيار في أن يتجه نحو وادي الظلمات، أو يسير نحو الحياة الأبدية النورية الخالدة، ويصبح إنساناً وضّاء الضمير يترشح النور من ظاهره وباطنه، فكلتا النتيجتان ينالهما الإنسان باختياره. فالإسلام ـ إذن ـ غير متشائم حيال الإنسان إلىٰ الحد الذي يرىٰ فيه الظلمات والوحشية. ولا هو بالمتفاءل إزاءه بما يفوق الحد، بل إن نظرته إليه لا تخرج عن الواقعية في وصفه له بـ «الأمشاج» وقد منحه حق الاختيار إلىٰ آخر لحظات حياته، وجعل أمامه الباب مفتوحاً حتىٰ وإن عاد من الإسلام إلىٰ الكفر: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[1].

والآن أسأل: ماذا سيكون موقفنا لو جاء من يمتدح شخصاً لا نعرفه، ويسرد علينا فضائل أخلاقه وشيم أوصافه وصدق كلامه وسلامة منهجه وحسن سلوكه، ويذكر لنا منه صفات كصفات الإمام علي عليه السلام ولكن ليس بهذا الإسم الذي ولدنا في حبه وكبرنا في ودّه؛ وماذا ستكون عواطفنا وقلوبنا تجاهه؟

هذا السؤال يجب أن نطرحه علىٰ فطرتنا، ونلاحظ بماذا تجيب. إنني لم أجد في حياتي شخصاً لا يحب هذه الفضائل، ومن يحملها من الناس الأخيار. وبطبيعة الحال فإنني لا أقصد الإطلاق في كلامي، لأنّ هناك المسخ من الناس أيضاً، كما إن هذا الموقف يجب أن لا يصدر عن خلفية الحب والبغض، لأنّ المرء قد يكره شخصاً عادلًا تتوفر فيه كل الفضائل الأخلاقية إذا تسنّم هذا الشخص زمام الأمور، وصادر

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (٨٩).

أمواله عن حق. ولكن لنجرّب ونطّلع علىٰ موقف أسوأ الناس من شخصٍ نضفي عليه صفات الإمام علي عليه السلام وفضائله. هل سيكرهه؟ أم هلْ سيشعر بحب تجاهه؟ أم إنّه لا يبالي به؟ وما هو موقف شمر بن ذي الجوشن ـ علىٰ سبيل المثال ـ من الإمام الحسين عليه السلام لو وصفت له فضائله عن بعد (وليس في ميدان المعركة، لأنّه يجب أن يتخلى هنا عن مناصبه ومصالحه لو أراد أن يقف إلىٰ جانبه)؟ هل سيميل قلبه إليه أم لا؟

إنني ـ وانطلاقاً من تجربتي الشخصية المستمرة في هذا المضمار ـ لاحظت نوعاً من الميل الايجابي نحو الحق حتىٰ لدىٰ الأشخاص الغارقين في شهواتهم، شريطة أن لا تصطدم الحقيقة بمصالحهم. وإذا كانت تجارب الآخرين أسفرت عن نفس النتيجة، فيمكن الجزم بوجود نوع من الميل إلىٰ الحق في باطن الإنسان وفطرته، لكن ما الذي يقضي علىٰ أثر هذا الميل ويبطل مفعوله؟ إنّه اصطدام المصالح، حيث يؤدي إلىٰ جعل هذا الميل ميلًا نظرياً ولا يسمح بخروجه إلىٰ حيّز العمل والفعل.

وما هو السبيل لتفعيل هذا الميل الفطري؟ يجب أن يُصار إلىٰ تنميته بالاختيار أولًا، ثم بالممارسة والتهذيب ثانياً حتىٰ يهيمن علىٰ الميول الأخرى، وفي غير ذلك فإن أرضية الميول الأخرىٰ ستكون مهيّأة أكثر للنمو والرشد.

آفة كامنة

تستطيع الميول الأخرىٰ الموجودة في الإنسان أن تجذبه إلىٰ الجهة التي تتقاطع مع الحق وتناوئه، وذلك عندما تتوفر لها أرضية للنمو أقوى من ميل الحق. مثال ذلك: الميول الجنسية في الشاب اليافع، فإنّها أقوىٰ من الميل إلىٰ الحق عنده، وهكذا بالنسبة للإنسان

المترف فإنّ الميل إلىٰ كماليّات الدنيا أو إلىٰ الرئاسة وحب الجاه أقوىٰ عنده من الميل إلىٰ طلب الحق.

وهذه آفة كبيرة من آفات أهل العلم. وإنني أطلب من الأخوة أن ترتفع أصواتهم بالصلاة علىٰ محمد وآل محمد عند ذكرهم لهم، لا عندما أدخل إلىٰ هذا المجلس كما هو سائد حالياً في إطلاق هذه الصلوات لدىٰ دخول من يرتدي زي علماء الدين. وقد حذّر أمير المؤمنين عليه السلام من مخاطر خفق النعال، باعتبار أنّ ذلك من مكائد الشيطان ومصائده التي يترصد بها المؤمنون، لأنّ هناك من الناس من يخفق قلبه مع خفق النعال التي تتبعه، فإذا كانت كثيرة سرّ بها، وإذا كانت قليلة أصابه القلق. لقد وصلتني اليوم رسالة من أحد المعممين البسطاء، لي به معرفة سطحية منذ سنوات في مدينة قم، وعندما فتحتها وكانت مبللة بماء المطر، لاحظت إنّها رسالة عاديّة، وقد طلب منّي فيها أن أؤسس لي كياناً خاصاً تبعاً لمؤهلاتي، طلب ذلك عن حُبٍّ تجاهي لأنني أعرفه حق المعرفة فلا يصله مني ضرر أو نفع. وقد نويت أن أردّ عليه وأنبهه إلىٰ مخاطر هذه الكيانات علىٰ علماء الدين. وأنهم قد يستطيعون الغض عن الكثير في حياتهم، لكنهم ربما ينزلقون في مسألة الكيانات والزعامة وإطلاق الصلوات.

وقد حدث معي مرة أن حاول بعض الأصدقاء تقبيل يدي لدىٰ عودتي من السفر فرفضت ذلك، وكان جالساً إلىٰ جانبي أحد الذين يُنسبون إلىٰ العلم، فاحتج عليّ بضراوة قائلًا: لِمَ تريد كسر هذا التقليد وتضع البدع في علاقات عامة الناس مع العلماء؟ دعهم يقبّلوا يدك. فلماّ انفض المجلس قلت له إنني أفضل ذلك خشية على نفسي من الانحراف. فردّ عليّ قائلًا: وهل تتصور أن فلاناً (ذكر اسمه) تؤثر في شخصيته ظاهرة تقبيل يده؟ فأجبته: إنني لا أحكم علىٰ الناس، لكنني

أخاف علىٰ نفسي، وقل بعدها ما تريد قوله... قل إنك إنسان ضعيف والآخرين أقوىٰ منك، المهم أنني لا أستطيع أن استغفل نفسي. ثم وجّهت له سؤالًا وطلبت منه ما إذا كان يستطيع أن يشير إلىٰ إحدىٰ الشخصيات الحاضرة ومدىٰ استعدادها لاختيار طريق الحق علىٰ حساب كل هذه الأمور من تقبيل الأيدي إلىٰ خفق النعال إلىٰ إطلاق الصلوات من أجله. فلم يحر جواباً. وقال: لا أستطيع. فعاتبته علىٰ ما طلب مني، وقلت له: إنّ ذلك من شأنه أن يزيغني ويؤدي بي إلىٰ الفساد. فقال لي إنّه كان يعلّق عليّ آمالًا كبيرة. فقلت له: إنّها آمال في غير محلّها، لأنني أَعرف بنفسي من غيري. وأنا معرّض كالآخرين للانحراف.

علىٰ المجتمع أن لا يتصور وجود إنسان غير معرّض للفساد والانحراف، وليت نهج البلاغة كان معي لأتلو عليكم منه ما يقوله الإمام علي عليه السلام بهذا الصدد[١]. حتىٰ في مسألة العصمة التي يقول بها الشيعة فإنّها حددت الموضوع في إطار معيّن، فلماذا يتمّ التعاطي مع أُناس عاديين بأسلوب وكأنّهم فوق المعصومين؟ وقد تعرّض مرة أحد الأساتذة الكبار إلىٰ هجوم من جانب الحوزات العلمية لا لشيء إلّا لأنّه كتب في هامش أحد الكتب العلمية أن مؤلفه كان قليل المطالعة في الجانب الفلاني رغم علو شأنّه وسمو مقامه.

القرآن يرىٰ أن الإنسان كائن تتجاذبه دوافع وميول متعددة، وكل ميل من هذه الميول يحاول أن يؤثر فيه ويستقطبه إليه، دون أن يكون لأي منها القدرة الذاتية علىٰ القيام بدور مصيري في حياته، ذلك أن مثل هذا الدور وضع باختيار الفرد نفسه، وهو ما يشكّل عبئاً عليه، كما

---

(١) في إشارة إلى الخطبة ٢٠٧ من النهج التي يقول فيها: «فإني لست في نفسي بفوق أن أخطىء ولا آمن ذلك من فعلي».

أن بعض هذه الميول أكثر استعداداً للنمو من غيرها رغم أنّها متساوية في بداية أمرها، وما علىٰ المرء إلّا أن يعمل علىٰ تقوية جانب الحق في نفسه بالممارسة والتهذيب.

حب المال، أحد الميول القوية في الإنسان

تتحدّث الآيات التالية عن حب المال الذي يُعدّ أحد الميول القوية في الإنسان، وهي موجهة إلىٰ أولئك الذين يهمهم المال، ويرون أنّه الحل الأنجع لكل مشكلة، وهذا الميل من القوة بحيث يستطيع أن يؤثر بشدة في حياة الفرد.

وربّما يستغرب بعض من يتعذر عليه فهم عمق المواضيع القرآنية من وجود الآية في هذا الموقع بالذات، وما علاقة ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ بالموضوع الذي ناقشته الآيات السابقة؟

هنا بيت القصيد، إذ أن الآيات التي تطرقت إلىٰ الانحراف عن الإسلام والحق، أكدت أن هذا الانحراف ناجم عن عوامل مختلفة منها: المال والثروة. كما بيّنت الكثير من آيات الانفاق إنّ حبّ المال هو مرض عضال يأخذ بخناق الجميع، ويخاطب من يصاب به بالقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾(١).

إن من يخضع لحب المال ويستسلم لهذا الميل، يشيح بوجهه عن الحق حينما يصطدم هذا الحق بمصالحه وبميله إلىٰ حب الثروة، ويبتعد من ثمّ عن الإسلام مقترباً من الكفر، ليموت من بعد وهو من الكافرين حسب ما تصرّح به الآية الكريمة، وتؤكد أن أمواله لا تنفعه يوم الحساب ولو افتدىٰ بملء الأرض ذهباً، دون أن يجد هناك من ينصره.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (٩١).

ثم تعقّب الآية بترابط واضح بأن هذه الثروة لا يمكن أن توصل إلىٰ برّ الأمان والسعادة إذا لم تنفق في سبيل الله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[1].

ثمّة ارتباط وثيق بين هذه الآية وسابقتها التي تتحدث عن الانحراف عن الإسلام وعن الحق بأثر الثروة وحبّ المال، فهل يا ترىٰ يمكن حذف شيء مما قيل، أم أن الموضوع لا يستوفي حقّه إلّا حينما يُناقش كله بهذه الطريقة المترابطة؟

واتباعاً لهذا القانون القرآني، نحمد الله أن وفقنا لأداء حق الموضوع ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، وأرجو أن لا يكون بيننا من يأخذ جانب المال والثروة، وإن وُجد (وهي حالة شائعة بنسبة ترتفع أو تنخفض) فنسأل الله أن يوفقنا لتهذيب أنفسنا للخلاص من هذا المستنقع الهابط الذي لا يليق بالإنسان كخليفة لله على الأرض، وأن يعيننا علىٰ اختيار طريق الحق حينما يواجهنا مفترقٌ لطريقَيْ الحق والثروة، وهو خيار يصعب تطبيقه علىٰ المستوىٰ العملي رغم سهولة النطق به. فالحذر الحذر لمن يملك حق الاختيار لأنّ عليه أيضاً معاناة الانتخاب. والحمد لله وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد وآله الطاهرين.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (٩٢).

الفهرس